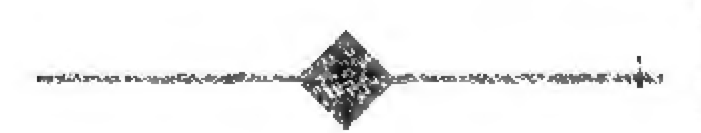
الدكتور / محمد مندور





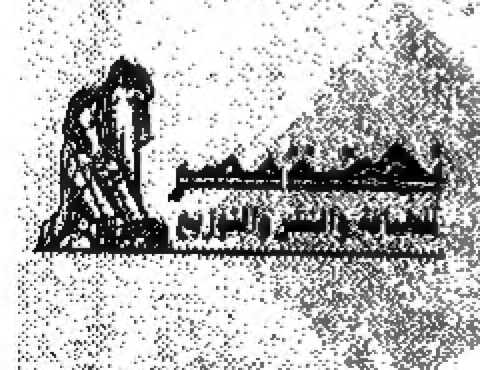


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

قصص رومانية

ترجمة وتقديم

الدكتور: محمد مندور



اسم الكتاب: قصص رومانية
اسم المؤلف: د. محمد مندور
تاريخ النشر: نوفمبر ١٩٩٦

رقم الإيداع: ١٩٩٦/١١٧٨٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977 - 14 - 0516 - 0

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ /١١.
فاكس: ٣٣٠٢٩٦/١١.
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة.
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥.
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥/٠٢.
ص. ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤/٠٢.
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦/٠٢.
ص. ب: ٢٠ إمبابة

مقدمة

بقلم الدكتور محمد مندور

هذه صفحات مختار من فن القصص فى الأدب الرومانى تمثل رانا مختلفة من هذا الفن وتطوره عند شعب صديق يشبه فى فاحه من أجل التحرر والوعى بذاته شعبنا العربى إلى حد كبير ، ى ربما كان كفاحه أكثر عنفا وضراوة حتى بالنسبة للغته القومية لاحتفاظ بمقوماته الأصلية .

فالشعب الرومانى الأصلى جاءته اللغة اللاتينية مع الغزو رومانى وتطورت تلك اللغة كلهجة محلية حتى أصبحت مايعرف يوم باسم اللغة الرومانية ، ولكن هذه اللهجة التى أصبحت لغة ، تتم وتتطور وتستقر بغير عوائق وهزات ، أتتها من غزوات ييرانها وسيطرتهم على البلاد بعد تضعضع الإمبراطورية رومانية ، فتعرضت تلك اللغة لمؤثرات سلافية عميقة ، ثم ؤثرات تركية قد تكون أقل عنفا واتساعا ، ولكنها مع ذلك عاقت ، اللغة القومية وأصابتها بالبلبلة نتيجة لاحتلال تركيا لرومانيا رونا طويلة ، ولكن الشعب الرومانى الاصيل استطاع بالرغم من ل ذلك أن يسترد المقومات الاساسية لقوميته وفى مقدمتها لغة ، وكان ذلك بنوع خاص وبشكل واضح فى القرن التاسع شر ، فإن ظهور القوميات فى أوروبا نتيجة للروح الثورية التى ستعلت بكل بلد من بلاد أوروبا فى ذلك القرن .

وإذا كان الشعب الرومانى فى مرحلة كفاحه من أجل قوميته الأصيلة ، وتدعيم هذه القومية بكل دم قوى سليم قد تعرض فى ثقافته وأدبه وفنه إلى مؤثرات غربية قوية ، كالمؤثرات الألمانية والفرنسية وغيرها ـ فإنه لم يلبث ابتداء من منتصف القرن الماضى تقريبا أن تخطى تلك المرحلة ايضا ليعتمد على نفسه ويبحث عن أصالته الخاصة ، وقاد هذه الدعوة عدد من أدباء رومانيا ومثقفيها الذين التفوا فى مقاطعة مولدافيا بنوع خاص ـ حول المجلة التى أصبحت من مشاعل تاريخ الثقافة والأدب والفن فى رومانيا ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى مجلة «داسيا الأدبية» ، ورأى هذا النفر من الأدباء والفنانين أن طريقهم إلى الأصالة هو العودة إلى ماضيهم القومى ويوميات مؤرخيهم الأوائل بلغتهم الرومانية النقية من جهة ، واستحياء آدابهم الشعبية من جهة أخرى ، باعتبار أن تلك الآداب هى التى تعبر عن الروح الأصيلة للشعب وتقاليده ومواضع اهتمامه بطريقة تلقائية نابعة عن طبيعة الحياة ، وغير متأثرة بالثقافات والتيارات والآداب والفنون الوافدة من الخارج ، والتى تؤثر بنوع خاص فى المثقفين لا فى أدباء وفنانى الشعب .

وأخيراً دراسة واقع الحياة الرومانية المعاصرة والكشف عما فيها من مظالم ومساوئ ، وتصوير مشاهد الطبيعة وحياة البشر المرتبطة بتلك المشاهد والمتأثرة بها والمؤثرة فيها ، وهذه هى التيارات الثلاثة التى سيجدها القارئ فى هذه المختارات التى يرجع أقدمها إلى أبعد من سنة ١٨٤٠ أى التى تقع كلها فى الفترة الحديثة التى أخذت فيهارومانيا تكتشف نفسها وتستكمل مقومات أصالتها .

مادة القصص

ففى هذه المختارات سيلتقى القارئ بالتيار التاريخى فى مثل قصة «ألكسندرو تابو شنيانو» للكاتب «كونستنتين نيجروزو» التى استقى مادتها من كتاب اليوميات القدماء ، وصور فيها ذلك الصراع الدامى الذى كان يجرى بين الأمراء فى العصر الإقطاعى للسيطرة على الحكم ويرسم فيها لوحة دامية لمذبحة فظيعة دبرها أحد هؤلاء الأمراء لمنافسيه ، على نحو مافعل محمد علي بالمماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة فى تاريخنا الحديث بل وأشد ضراوة ، وقد أعمل المؤلف فى تصوير هذه اللوحة خيالا قاسيا تهتز من حوله أصلب الأعصاب .

وفى هذه المختارات أيضا يلتقى القارئ بالحكايات الشعبية التلقائية التى قد لاتكون فيها الحبكة الفنية ، ولكن فيها سحر السذاجة وعصير الحياة الشعبية النضرة فى مثل قصة «الأب نيكيفور الحلنجى» للكاتب «إيون كريانجا» الذى تقرأ قصته الشعبية فيخيل إليك أنك تسمع متحدثا شعبيا خفيف الروح ولاتقرأ لكاتب محترف .

وبالمثل فى قصة الكاتب الكبير «كاراجيالى» التى سماها «فندق مانيوالا» وصور فيها نزوات النفس الفطرية ومغامراتها ، التى لاتحس فيها بأى افتعال أو تصنع ، وتوهمك بأنها من صميم

الواقع الممكن الحدوث فى الحياة التلقائية ومصادفاتها العجيبة ومعتقداتها الساذجة .

وإلى جوار القصص التاريخية والفلولكلورية سيلتقى القارئ بالتيار الواقعى الفنى المحبوك الذى يرسم صورا أخلاقية دقيقة مكتملة القسمات مجسدة فى شخصية نموذجية مثل شخصية «الحاج ديدوز» للكاتب «باربودى لافرانكيا» التى يجسد البخل على نحو لايقل دقة وشمولا وثراء فى التفاصيل عن شخصية «هارباجون» عند «موليير» «وايوجين جراندين» عند «بلزاك» .

حتى إذا انتقلت إلى الكاتب «تيودور أرغيزى» التقيت بالمنمنات - أى : اللوحات الفنية الصغيرة الشاعرية الروح والأسلوب فى مثل لوحاته : عن «القط» و«شجرة العرائس» و«سن سعيد» و«خطاب عائلى» و«رجل مسكين» و«ماريا نيكيفور» وهى لوحات تتفاوت بين المثالية العاطفية المرهفة فى تصويره الشعرى للقط ، ولحياته فى المنزل وللأطفال ، وبين الواقعية النقدية الحادة فى مثل لوحات «الرجل المسكين» و«ماريا نيكيفور» - وهذه اللوحات لانعتبرها قصصا : إلا تجاوزا لأنها فى الواقع وكما قلنا منمنمات ، أى : ميداليات فنية صغيرة مطرزة فى دقة وشاعرية ساحرتين .

ولما كانت البيئة الزراعية أسبق إلى الوجود فى رومانيا التى كانت أول الأمر تعتمد فى حياتها على الزراعة قبل كل شىء ، فقد كان من الطبيعى أن ينصرف اهتمام الأدباء والفنانين أول

الأمر إلى هذه البيئة ومشاكلها وويلاتها عندما أدركوا أن واقع حياتهم هو المنبع الثرى الذى ينبغى أن يمنحوا منه ، ومن هناجاءت قصص مثل «أمطار يونيو» للكاتب «ساهيا» التى تصور كفاح الفلاحين الرومانيين وشجاعة المرأة الرومانية التى تلد فى الحقول فى تجلد وهى تعمل كادحة مع زوجها فى سبيل لقمة العيش ، وسط الطبيعة المتجهمة وضغط السلطات الحاكمة وقسوتها ، بل وتلد توأمين فيبلغ عدد أطفالها التسعة ، وزوجها لا يملك إلا قطعة صغيرة من الأرض لايدرى كيف يشبع بها أحد عشر فما جائعا ، وهى قصة بالغة القوة والإثارة وروائعة البنان الفنى والتعبير الموحى .

ولما كانت رومانيا قد أخذت تتصنع وبخاصة فى القرن العشرين بعد اكتشاف ثروتها المعدنية الضخمة وبخاصة آبار البترول الغنية فقد كان من الطبيعى أن يمتد اهتمام أدبائها وفنانيها إلى البيئة العمالية الصناعية الجديدة ، ومن هنا أخذ يظهر هذاالنوع الجديد من القصص فى مثل الفصل الذى ترجمناه من رواية «الذهب الأسود» للكاتب «سيزار بترسكو» ، وهو كاتب تقدمى مناضل صور فى روايته الصراع العنيف بين الشعب الرومانى ورأس المال الأجنبى المستغل الذى وفد إلى رومانيا للسيطرة على ذهبها الأسود أى على ينابيع بترولها الغزيرة .

ولماكانت حياة الإنسان العاطفية لابد من أن يكون لها نصيبها فى كل إنتاج أدبى فنى ، وفى أية صورة اتخذها هذا الإنتاج ، فقد

كان من الطبيعى أن نلتقى فى فن القصص الرومانى أيضا بالقصص ذات الطابع العاطفى الخالص فى مثل قصة «شجرة الليلا» التى تكون فصلا من رواية «الجذوع مرة» للكاتب «زهاريا ستانكو» الذى عرف كيف يمزج فى قصته بين المأساة العاطفية الخاصة لبطلها وبطلتها وبين ويلات الحرب ومآسيها المفجعة ، وفى مثل قصة «كيراكيرالينا» الرائعة للكاتب بنيات استراتى التى مزج فيها المؤلف بين صورة عاطفة الصداقة البريئة المخلصة بين فتى رومانى شريد وبائع يونانى متجول التقى به فى بلاد الشرق ، وبين صورة حياة هذا الشريد الشقية المعذبة نتيجة لظلم وانحلال كبار أثرياء الإمبراطورية العثمانية وتجارتهم بالرقيق الأبيض ، الذى وقعت بين براثنه «كيراكيرالينا » أخت هذا الشريد ، وخرج المؤلف من المزج بين الصورتين المتقابلتين المتداخلتين بلوحة متكاملة موحدة تهز أعماق العاطفة الإنسانية الشريفة .

الأشكال الفنية

وبالرغم من أن المجموعة الفرنسية التى اخترت منها هذه الصفحات من فن القصص الرومانى تحمل اسم Nouvelles Rumaines وقد أعدها الأستاذ الرومانى «تيودور فيانو» وقدم لها كما قدم لها أيضا الاستاذ الفرنسى «جان بوتيير» المتخصص فى الآداب واللغة الرومانية إلا أن مختارات هذه المجموعة لاتنطوى كلها تحت المصطلح الفنى الذى اتخذ عنوانا لها ، بل تضم كما رأينا قصصا قصيرة وأخرى متوسطة وفصولا من روايات طويلة بل ولوحات فنية شعرية الطابع .

والواقع أن فى اللغة الفرنسية ثلاثة مصطلحات يطلق كل واحد منها على نوع خاص من فن القصة ، فهناك لفظة Cone التى تقابل ما اصطلحنا فى العربية على تسميته بالقصص القصيرة ، كما أن لفظة Roman التى اصطلحنا على ترجمتها إلى العربية بلفظة الرواية أو القصة الطويلة ، بينما هناك لفظة ثالثة هى Nouvelle التى لم نستقر بعد على مرادف بها بالعربية ، وهى تطلق فى الفرنسية على نوع من القصص المتوسطة الطول التى يغلب عليها عادة الطابع الاخبارى ، وربما كان ذلك هو السبب فى تسميتها بلفظة Nouvelle التى تعنى فى أصلها اللغوى «الخبر» ،

وإن كنا نلحظ أنه إذا كان عملاق هذا الفن القصصى الخاص الكاتب الفرنسى «بروسبير ميرميه» قد احتفظ له بطابعه الإخبارى حتى لتكاد القصص التى كتبها من هذا النوع تقتصر على تصوير الأحداث دون الوصف والتحليل المسهبين ، إلا أن هذه الخاصية لم تلتزم دائما من الكتاب الآخرين الذين اكتفوا فى إدخال قصصهم تحت هذا النوع بالاعتماد على كمها .

أى اعتبروا كل قصة متوسطة الطول داخلة فيه ، مع أنه من الواجب فنيا ولتمييز هذا النوع من غيره من أنواع القصص ـ أن يحتفظ له بطابعه الإخبارى ، وعندئذ كنا نستطيع أن نترجم هذا المصطلح إلى العربية بعبارة القصة الإخبارية متخذين لها نماذج من قصص «بروسبير ميرميه» التى كتبها فى هذه الصورة مثل «كولومبا» و«ماتيو فالكونى» وغيرهما .

ومهما تكن الاختلافات الشكلية الاصطلاحية فإن هذه الصفحات من فن القصص الرومانى تكون نماذج رائعة للفن القصصى كله مهما اختلفت صوره وأبعاده ، وهى تعطى فكرة واضحة متكاملة عن اتجاهات هذا الفن ومنابعه وأهدافه ومواضع اهتماماته .

أوجه شبه

والقارئ العربى ـ فضلا عن المتعة الثقافية والفنية التى سيجدها عند قراءة هذه الصفحات المختارة ـ فإنه لن يعدم الوقوع على أوجه شبه بين حياة شعبنا العربى وكفاحه واتساع اهتماماته وبحثه عن أصالته الخاصة ، وبين حياة الشعب الرومانى وكفاحه واتساع اهتماماته هو الآخر وبحثه عن أصالته الخاصة .

وإذا كنت لم أقرأ حتى اليوم لأحد أدبائنا تصويرا لمذبحة المماليك فى القلعة مثلا على نحو ما قرأت هنا قصة الكاتب «ليجيرتسو» عن مذبحة «الكسندرو لابونشيانو» فإننى قد وجدت مع ذلك مايشبه هذا الفن القوى فى مثل قصة العسكرى الأسود للدكتور «يوسف إدريس» ، كما أننى الاحظ أن فننا القصصى يمر اليوم بنفس المراحل والتطورات والاهتمامات التى مر بها الفن القصصى الرومانى عندما أخذ يعود إلى ماضيه فى القصة التاريخية منذ «جورجى زيدان» ، ثم عندما أخذ يتجه إلى حياتنا الريفية باسلوب يجمع بين الرومانسية العاطفية والواقعية فى قصة «زينب» «لمحمد حسين هيكل» وأخيرا اتجاه أدبائنا نحو مشكلات ومعارك الفلاحين فى مثل قصة «الأرض» «لعبدالرحمن الشرقاوى» وكفاحنا الوطنى فى «عودة الروح» «لتوفيق الحكيم» ، وفى الفترة الأخيرة اهتمامنا بالآداب الشعبية وجمعها وتسجيلها

ودراستها كأساس لاستيحائها فى أدبنا الجديد الذى أخذت طلائعه تظهر .

ويسرنى أن ألاحظ أيضا أن حركة التصنيع القائمة الآن على قدم وساق فى بلادنا لابد أن تخلق عما قريب الأدب الذى يعالج حياة الطبقة العاملة وكفاحها الصناعى ومشاكلها الخاصة على نحو ماحدث فى الأدب الرومانى سواء بسواء .

وهكذا أرجو أن يفيد عملى المتواضع فى ترجمة وتقديم هذه المختارات إلى قراء العربية فائدة تجمع بين المتعة الفنية الخالصة وإبراز أوجه الشبه والالتقاء والتقارب بين كفاح الشعوب النامية وبحثها عن ذاتها .

محمد مندور

كونستانتين نجروزو

(١٨٠١ـ١٨٦٤)

ينتمي كونستانتين نجروزو إلي أسرة متواضعة من نبلاء ملدافيا وهو أحد جماعة كتاب مجلة «داسيا الأدبية» التي كان يديرها «ميخائيل كجالنيشاينو» والتى كانت تهدف قبيل ثورة سنة ١٨٤٨ إلي الكفاح في سبيل أدب قومى أصيل ، وهو كاتب موهوب تميز في بدء حياته الأدبية بالطابع الرومانسى ولكنه لم يلبث أن تكشف في «أسود فوق أبيض» و«خطايا الشباب» عن كاتب واقعى عامر بالسخرية قادر على أن يصور شخصيات ومواقف أصيلة من حياة ملدافيا فى أواسط القرن الماضى ، وهو خالق القصة التاريخية ، وتعتبر قصة «اسكندر لابوشنيانو» أروع ماكتب في هذا الفن ، كما أنه خلف قصيدة ملحمية إضافية بطلها الرئيسى هو اتيين الكبير الذى حكم ملدافيا فى القرن الخامس عشر ، وقد كان مترجما متحمسا عرف الجمهور الرومانى بمؤلفات موليير وفلتير وفيكتور هيجو وا . كانتمير وبوتشكين وغيرهم .

اسكندر لابوشنيانو (1)

(١٥١٤-١٥٦٩)

-١-

«وإذا كنت لا تريدونني فإنني أريدكم»

كان يعقوب الهرقلي[2] قد مات مقتولا بأسلحة ستيفان تومسا[3] الذي كان يحكم البلاد، عندما استطاع اسكندر لابوشنيانو الذي كانت جيوش يعقوب قد هزمته مرتين وفر لاجئا إلى القسطنطينية - أن يحصل على تعضيد الجيوش التركية وأن يعود ليسترد الحكم من تومسا المغتصب ويسترجع العرش الذي ما كان ليفقده قط لولا خيانة النبلاء وقد دخل ملدافيا على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف من الجنود المرتزقة ومزودا بفرمان بأمر خان التتار بأن يمد له يد العون كلما احتاج إليها .

(١) اسكندر لابوشنيانو - ابن غير شرعي لوجدان الأعمى وقد تولى الحكم على ملدافيا من ١٥٥٢ إلى ١٥٦١ ثم من ١٥٦٤ إلى ١٥٦٨ .

(٢) يعقوب الهرقلي - ابن ملاح إغريقي التحق بخدمة ضابط من النبلاء، ولم يكن هذا اسمه وإنما اتخذه اسما للشهرة، ويعد مغامرات في ساكس والدنمرك والسويد وبروسيا اتصل في بولندا بالنبلاء الرومانيين المهاجرين ثم انتحل له نسبا جعل منه قريبا للأميرة روكساندرا، وقام بانقلاب ضد لابوشنيانو عن طريق التآمر وتولى حكم ملدافيا من ١٥٦١ إلى ١٥٦٣ إلى أن هزم وقتل بواسطة تومسا، وعن حياة هذا الأمير المغامر كتب ف . الكسندري الدراما المسماة «فودا المستبد» سنة ١٨٧٩ .

(٣) أمير يرى بعض رواة التاريخ أنه لم يكن إلا طامعا في العرش ولكنه في الواقع قد تولى الملك في فترة قصيرة في سنة ١٥٦٣ إلى أن طرده لابوشنيانو من ملدافيا فجاء إلى بولندة وقتل في سنة ١٥٦٤ في غزو الأتراك .

وهاهو الآن يعلو فوق خيله وإلى جواره وزيره روكدان وقد امتطى كل منهما جوادا عربيا وتدجج بالسلاح من الرأس إلى القدم ، وقال اسكندر بعد لحظة صمت :

«ما رأيك يا روكدان؟ هل سننتصر؟»

وأجاب الوزير : «لاشك فى ذلك ياسيدى ، فالبلاد تئن تحت نير تومسا ، وسيعطيك الجيش كله لجرد أن نعده بزيادة المرتبات ، وأما عن النبلاء الذين لايزالون أحياء فإن خوف الموت هو وحده الذى يمسكهم ولكنهم عندما يرون قوات عظمتك سينضمون إلينا ويتخلون عنه» .

- إنى لأسأل الله ألا اضطر إلى أن افعل مافعله الحاكم ميركيا[1] فى الفلاكيين ، ولكنى أكرر ما قلته لك أكثر من مرة من أنى أعرف هؤلاء النبلاء بحكم حياتى بينهم .

- إن الأمر لعظمتك تقضى فيه بحكمتك السامية ، وظلا فى مثل هذا الحديث حتى وصلا إلى قرية تيكوشى بين بوخارست ومدينة إياسى ووقفا عند حافة غابة لكى .

واقترب أحد السواس ليقول :

- يا سيدى ، لقد وصل بعض النبلاء وهم يطلبون الإذن بالمثول أمام عظمتك .

وأجاب إسكندر : فليأتوا

---

(١) هو ميركيا الثالث المسمى بالراعى وقد حكم بلاشيا من ١٥٤٥ : ١٥٥٣ ثم من ١٥٥٣ : ١٥٥٩ ، وفي كل مرة واجه معارضة قوية مما اضطره علي حد قول الرواة للقيام بمذبحة فظيعة للنبلاء قتل فيها مايقرب من المائتين .

وفورا دخل إلى خيمة إسكندر أربعة من النبلاء محاطين بأتباعه وضباطه ، وكان اثنان منهما أكبر سنا واثنان اصغر ، والأكبر هما موتزوك وزير الداخلية وفيفر تزا كبير الياوران ، وأما الأصغر فهما القائدان المساعدان سبانكوك وستروبكى .

واقتربوا من الأمير إسكندر ثم انحنوا حتى الأرض ولكنهم لم يقبلوا ـ كما جرت العادة ـ ذيول قفطانه .

فأجابوا : لك السعادة والرخاء يا صاحب العظمة ، واستطرد إسكندر يقول :

ـ لقد علمت بالرزايا التى حلت بالبلاط ، وقد جئت لإنقاذها ، وأنا أعلم أن الناس ينتظروننى فى غبطة .

وأجاب موتزوك قائلا :

فلتسمح عظمتك بأن أقول أن كل شيء هادىء عندنا ، ولربما يكونوا قد قصوا عليك أشياء لاوجود لها ، فلدى قومنا عادة سيئة هي تفخيم الأشياء تفخيما مسرفا ، ولقد كلفنا ، بأن نخبرك أن الشعب لايريدك ولايحبك ، وأن عظمتك تحسن صنما لو عدت إلى . .

وأجاب لابوشنيانو وعيناه تقدحان الشرر :

«إذ كنتم لاتريدوننى ولاتحبوننى فإننى أنا أحبكم وسأستمر فى طريقى وافقتم أم لم توافقوا ، وأما أن اترك أنا البلاد فأهون منه أن يرتد الدانوب صاعدا إلى منبعه! آه! البلاد لاتريدنى بل أنتم الذين لاتريدوننى إذا صح فهمى !»

فقال سبانكيوك : «إن رأس الرسول لايمكن أن تقطع وإن من واجبنا أن نخبرك بالحقيقة ، فالنبلاء مصممون على الهجرة إلى

المجر وبولندا وفلاشيا ، حيث لهم أقارب وأصدقاء ، وسيعودون مع جيوش أجنبية فتنزل المحنة بشعبنا ، عندما يصطدم البعض بالبعض ، ولربما قاسيت أنت نفسك يا صاحب العظمة من هذه المحنة ، وذلك لأن الأمير ستيفان تومسا . .»

فقاطعه قائلا : «تومسا! هل هو الذى علمك أن تتكلم بهذه الجرأة؟ لست أدرى لماذا لا أسحق فكيك؟!»

ثم أضاف وهو يمسك بالمدقة النحاسية التى كانت فى قبضة بوجدان : «إن هذا الملعون تومسا هو الذى علمك . .؟»

فقال فيفيرتزا : «لا يمكن أن يكون ملعونا ذلك الذى استحق أن يسمى (مسحة الرب)» .

ولكن ألست أنا أيضا «مسحة الرب»؟ أو لم تقسموا لى أنا أيضا بالولاء عندما لم أكن غير نبيل يافع؟ وأنت يابترو أو لم تكن أنت الذى اختارنى؟ وكيف كان حكمى؟ أى دم أرقته؟ ومن الذى خرج من عندى دون أن ينال حقه بالعدل والقول الطيب؟ ومع ذلك لاتريدوننى الآن ولاتحبوننى! ها ها ها!» وأخذ يضحك والضحك يلوى عضلاته وعيناه تختلجان بلاتوقف .

وقال ستروبكى : «فلتسمح يا صاحب العظمة بأن أقول لك إن أرضنا ستطأها من جديد أقدام عصابات البرابرة ، وعندما تنهب أسراب الأتراك بلادنا وتدمرها فما الذى سيتبقى لتتولى عليه الملك يا صاحب العظمة؟»

وأضاف سبانكيوك : «ثم ما الذى ستستطيع أن تشبع به نهم هؤلاء الوثنين الذين اصطحبتهم معك يا سيدى؟»

ـ بأموالكم لا بأموال الفلاحين الذين تنهبونهم ، فأنتم تعتصرون الشعب ، وقد حان الوقت لكى تعتصروا بدوركم! كفى! ارحلوا! أيها النبلاء! اذهبوا لتنصحوا من أرسلكم بأن يتنحى عن طريقى إذا كان لايريد أن أصنع من عظامه أبواقا ومن جلده طبولا!

وانصرف النبلاء محزونين فيما عدا موتزوك الذى بقى فسأله الأمير : «لماذا بقيت؟» فأجاب موتزوك وقد جثا على ركبتيه : «مولاى! لاتعاقبنا على قدر أوزارنا! ولنذكر أنك نشأت من هذه الأرض ، ولتتذكر قول الكتاب المقدس لتغفر لنا أخطاءنا! ولتجنب هذه البلاد المتعطشة للدماء اصرف يامولاى هذه العصابات الوثنية ولاتحتفظ إلا بالمولدافيين الملتفين حولك يا صاحب العظمة ، ونحن مسئولون عن ألا يمس أحد شعرة من رأسك ، وإذا احتجت إلى جيوش فسوف نحمل السلاح جميعا رجالا ونساء وأطفالا ، وسوف نثير البلاد من أجلك ونسوق أتباعنا وعبيدنا ألا فلتمنحنى ثقتك!»

فقال لابوشنيانو الذى أدرك قصده : «أمنحك ثقتى؟ لعلك تظن أنى لا أعرف المثل المولدافى القائل : قد يغير الذئب من وبره ولكنه لايغير من طبعه؟ ولعلك تظن أننى لا أعرفكم ولا أعرفك أنت أكثر من الآخرين ، وأننى لا أعلم كيف تخليت عنى عند الهزيمة وأنت قائد جيوشى؟ حقا لقد كان فيفيرتزا عدوا لى دائما لكن وفى صراحة ، وسبنسيوك لايزال شابا وقلبه عامر بحب وطنه ، وأنا أحب أن أرى جرأته التى لايحاول أن يخفيها ، وستويكى طفل لم يعرف بعد الناس والملق والكذب كما لايعرف أن كل مايلمع ليس

ذهبا ، وأما أنت يامتزوك ، أنت الذى شاب فى العداوة وتعود تملق جميع الأمراء وخان المستبد كما خاننى وكما ستخون تومسا ، قل لى أو ما أكون بالغ الحمق إذا عدت فمنحتك ثقتى؟ ومع ذلك فإننى أغفر لك محاولتك خديعتى ، وأعدك بأننى لن أدنس سيفى بدمك ، وسأجنبك الهلاك لأننى فى حاجة إليك لكى تعيننى على تحمل عداوة الشعب ، فلاتزال هناك زنانبير ولابد من تنظيف الخلية!»

وقبل موتزوك يده كالكلب الذى يلعق يد من يضربه بدلا من أن يعضها ، فقد كان مغتبطا بالوعد الذى حصل عليه ، وكان يعلم أن الأمير إسكندر سيكون فى حاجة إلى رجل مغامرات مثله ، وكان تومسا قد أمر رسله بأن يعودوا إذا لم يستطيعوا إقناع لابوشنيانو وأن يتجهوا إلى القسطنطية لكى يحاولوا حملها على التخلى عنه بتقديم الضراعات والهدايا ، ولكنهم عندما رأوا أنه يتمتع برضا الباب العالى وتوجسوا خيفة من العودة إلى تومسا خاوى الوفاض ، فقد طلبوا من الأمير إسكندر الإذن لهم بالبقاء ومصاحبته ، وتلك كانت خطة موتزوك باسترضاء لابوشنيانو وحصلوا فعلا على ذلك الإذن .

-٢-

«سيكون عليك تقديم الحساب يا سيدتى»

أحس تومسا بعجزه عن مقاومة لابوشنيانو ففر إلى فلاشيا ولم يعترض أى عائق طريق لابوشنيانو ، ففى كل مكان استقبله الشعب بفرح وثقة ، متذكرا فترة حكمه الأولى التى كانت أقصر من أن تكشف عن خلقه البغيض .

ولكن النبلاء كانوا يرتعدون ، وكان لديهم سببان قويان للقلق فهم يعلمون أن الشعب يبغضهم وأن الأمير لايحبهم .

وبمجرد أن وصل لابوشنيانو ، أمر بحمل كميات كبيرة من الخشب إلى جميع قلاع مولدافيا ماعدا قلعة هوتان التى تقع على الحدود بين يسارابيا وأوكرانيا ، ثم أمر باشعال النار فيها لتدمير مأوى أولئك الساخطين الذين طالما اجتمعوا خلف هذه الجدران لكى يدبروا المؤامرات ويثيروا الفتن ، ولكى يحطم نفوذ النبلاء ويهدم أركان الإقطاع ، انتحل كافة الأعذار لكى ينتزع منهم أملاكهم ، وبذلك يحرمهم من الوسيلة الوحيدة التى بقيت بين أيديهم لإخضاع الشعب وإفساده .

ولما كان يرى أن هذه الإجراءات لاتكفى ، فقد أخذ يقتل من وقت إلى آخر بعض النبلاء ، لأهون خطأ يرتكبونه فى الوظائف العامة ، أو لأصغر مطلب يتقدمون به كانت الرؤوس تتدلى معلقة على باب القصر ، مع بطاقة تلون عليها الجريمة الحقيقية أو الوهمية التى ارتكبها كل منهم ، وما تكاد رأس تتعفن حتى تحل محلها رأس أخرى .

ولم يجرؤ أحد على أن يغتابه فضلا من أن يتآمر ضده ، وذلك لأنه كون لنفسه حرسا من المرتزقة الألبانيين والصربيين والمجريين والمطاردين بسبب جرائمهم ، الذين وجدوا ملجأ عنده ، وبفضل سخائه عليهم التفوا حوله ، وأما الفرق المولدافية وقوادها من الضباط الذين أخلصوا له فقد وضعهم فى الاحتياطى ، كما سرح معظم الجند ولم يستبق منهم إلا العدد القليل .

وذات يوم تحدث طويلا مع موتزوك - الذى كان قد استرد حظوته لديه ، والذى خرج من القصر بعد أن عرض عليه خطة لجباية ضرائب جديدة - ثم أخذ لابوشنيانو يتمشى فى صالة القصر ، وقد لاح أنه مضطرب يحدث نفسه ، ويدبر فيما يبدو مذبحة جديدة وجريمة جديدة ، وإذا بالباب السرى يفتح وتدخل الأميرة روكساندرا .

ويقول الراوى إنه عندما مات أبوها الأمير الطيب بترولاريس(1) الذى بكاه الشعب كله ، ودفن فى دير بروباتا المقدس - الذى كان قد بناه ، بقيت هذه الأميرة وهى فى غضاضة العمر ، تحت وصاية أخويها الكبيرين إلياس وستيفان ، وخلف إلياس أباه على العرش ولكنه بعد حكم قصير قضاه فى الدعارة اتجه إلى القسطنطينية حيث اعتنق الدين الإسلامى ، وخلفه ستيفان على العرش وكان أسوأ من أخيه ، فأرغم الأجانب وجميع الكاثوليك على التخلى عن دينهم ، وكثير من الأسر الغنية التى كانت مستقرة فى البلاد أخذت طريقها إلى المنفى ، مما أصاب الزراعة والتجارة بأضرار فادحة .

وأما النبلاء الذين كان معظمهم ذوى قربى للبولنديين والمجريين

---

(1) بترولاريس كان ابنا طبيعيا لإيتين الكبير وقد حكم مولدافيا مرتين من ١٥٢٧ إلى ١٥٢٨ ومن ١٥٤١ إلى ١٥٤٦ والدير الذى بناه لاتزال أنقاضه موجودة حتى الآن .

فقد اتفقوا مع المنفيين على القسم على موت ستيفان ، ولقد كان من الممكن أن يتريثوا فى تنفيذ خطتهم لولا أن حياة الأمير المنحلة حملتهم على التصميم على العمل بأسرع مايمكن ، فالراوى يقول فى سذاجة «إن أية سيدة نبيلة لم تكن تستطيع أن تنجو من نهبه لها مادامت جميلة» .

وذات يوم بينما كان الأمير بناحية تيتورا فى مقاطعة إسى القديمة ، ينتظر النبلاء الذين كانوا فى صحبته عودة أقاربهم المنفيين ، وخافوا أن يفلت من أيديهم ، فقطعوا حبال خيمته وانقضوا عليه وقتلوه .

ومن أسرة بترولاريس لم يبق الآن غير روكساندرا ، وكان النبلاء قتلة أخيها قد قرروا تزويجها ممن يدعى «بولد» الذى رشحوه لتولى العرش ، ولكن لابوشنيانو الذى اختاره النبلاء المنفيون تصدى «لبولد» وبعد أن هزمه وسجنه قطع أنفه واحتجزه فى أحد الأروقة ، ولكى يكسب قلب الشعب الذى كان لايزال يذكر حكم لاريس الطيب تزوج من ابنة هذا الأمير .

وهكذا أصبحت روسكاندرا الرهينة من نصيب المنتصر ، ودخلت إلى الصالة وفى ملابسها من الأبهة مايليق بزوجة وابنة وأخت أمير .

كانت ترتدى ثوبا مذهبا وفوقه صدار من المخمل الأزرق مبطن بالفراء ، أكمامه الواسعة تتدلى إلى الخلف ، وحول خصرها حزام مذهب ذو حلقات زمردية مطعمة بالحجارة الكريمة ، وحول عنقها عدة صفوف من اللؤلؤ الدقيق ، وكانت بطانة الفرو التى تميل قليلا على كتفها تزينها ريشة من الزمرد ، وقد ثبتت إلى جوارها زهرة الزبرجد ،

ووفقا لمودة العصر كان شعرها المرسل يتهدل على ظهرها وكتفيها .

وكان فى وجهها ذلك الجمال الذى اشتهرت به نساء رومانيا وإن يكن اختلاط الأجناس قد انحط به ، وكانت حزينة كالزهرة التى تتعرض للشمس دون ظل يحميها ، فهى قد رأت أقاربها يموتون ، ورأت أحد أخويها يتخلى عن دينه كما رأت الآخر يقتله أعداؤه .

وقد كان من المقرر أول الأمر أن تتزوج من «يولد» الذى لم تكن تعرفه مجرد معرفة ، ولكن الشعب تصرف فى قلبها دون استشارتها ، واضطرها أن تصبح زوجة للأمير اسكندر الذى اطاعته وكأنه مولاها وسيدها ، وودت أن لو أحبته ، ولكنها لم تجد عنده أقل قدر من الحساسية .

اقتربت وانحنت وقبلت يده ، فطوقها لابوشنيانو من خصرها ورفعها كالريشة ، ثم أجلسها على ركبتيه ، ثم طبع على جبهتها قبلة وهو يقول :

ما الأمر يا أميرتى الحسناء؟ وما الذى جعلك تتركين مغزلك مع أن اليوم ليس يوم عيد؟ ومن الذى أيقظك مبكرا هذا الصباح؟

ـ إنهن الأرامل اللاتى بللن بدموعهن عتبة بابى وهن يصحن طالبات الانتقام من الرب ومن العذراء المقدسة ، لكل ماتريق من دماء .

فأربد وجه لابوشنيانو وأرخى ذراعه عن خصرها وخرت روكساندرا عند قدميه ، وهى تقول :

آه يا سيدى وزوجى الشجاع . . كفى إراقة دم ، وكفى أرامل وأيتاما ، فأنت يا صاحب العظمة بالغ القوة ولايمكن أن ينال منك

شيئا هذا النفر من النبلاء المساكين ، وما الذى ينقصك يا مولاى؟ وأنت لست فى حرب والشعب هادىء وخاضع ، وأما أنا فالله يعلم كم أحبك ، وأطفالك صغار وحسان ، وأذكر أننا جميعا مقضى علينا بالموت وأنت نفسك يا صاحب العظمة فان ، وسوف تقدم حسابا ، ولايمكن أن يكفر بناء الأديرة عن إراقة الدماء ، كما أن محاولة تهدئة الله ببناء الكنائس يعتبر تحديا له .

فصاح بها لا بوشنيانو قائلا :

اخرسى أيتها المرأة الحمقاء .

ثم نهض فجأة واضعا يده ـ كما جرت العادة ـ على الخنجر المعلق فى حزامه ، ولكنه عاد بسرعة إلى السيطرة على نفسه وانحنى لينهض روكسندرا وهو يقول لها :

ياسيدتى لاتتركى مثل هذه الأقوال الحمقاء تخرج من فمك وأنا فى الواقع لا أدرى ماذا يمكن أن يحدث ، توجهى بالشكر إلى القديس ديمترى الشهيد العظيم الذى يوزع الزيت المقدس ، ويحمى الكنيسة التى بنيناها فى بانجاراتزى ، إذ منعنى من ارتكاب خطيئة عندما ذكرنى أنك أم أطفالى .

ـ لن أسكت ولو لقيت حتفى ، فبالأمس وأنا داخلة إلى القصر ، ألقت امرأة وأطفالها الخمسة بأنفسهم أمام عربتى لكى يوقفونى ويطلعونى على رأس مثبتة بالمسامير على الباب .

وقالت المرأة : إنك ستحاسبين يا سيدتى على تركك زوجك يذبح أبناءنا وأزواجنا وإخوتنا ، انظرى ياسيدتى . . هاهوى زوجى أب هؤلاء الأطفال الخمسة الذين أصبحوا يتامى . . انظرى جيدا!

أرتنى الرأس الملطخة بالدماء . . ونظرت إلى تلك الرأس نظرة مروعة! آه ياسيدى . . منذ تلك اللحظة وأنا أرى تلك الرأس وأرتعد ، ولم أعد أعرف طعم الراحة .

وقال لابوشنيانو وهو يبتسم :

وماذا تريدين؟

أريد أن توقف سفك الدماء وأن توقف المذابح ، ولا أريد أن أرى رأسا مقطوعة ، وذلك لأنى قلبى يتمزق .

وأجاب الأمير إسكندر :

لن ترى ابتداء من بعد غد . . وأنا أعدك بذلك ، وغدا سأعطيك دواء ضد الخوف .

كيف؟ . . ماذا تعنى؟

سترين غدا ، وأما الآن يا أميرتى المحبوبة فاذهبى لرؤية أطفالك ، وللعناية ببيتك كربة بيت طيبة ، وأعملى على إعداد وليمة لأن النبلاء سيكونون ضيوفى غدا .

وخرجت الأميرة روسكاندرا بعد أن قبلت يده من جديد ، وصحبها زوجها حتى الباب .

ودخل قائد الشرطة فأسرع الأمير نحوه وهو يقول :

هيه . . هل أعددتم كل شىء؟

نعم أعددنا كل شىء

ولكن هل سيحضرون؟

نعم سيحضرون

-٣-

«إن ماتريا هو رأس موتزوك»

فى اليوم السابق دعى النبلاء إلى الاجتماع فى اليوم اللاحق ، يوم العيد فى الكنيسة العامة حيث سيحضر الأمير أيضا لسماع القداس ، ثم يأتى الجميع إلى القصر لتناول الطعام .

وعندما وصل الأمير كان القداس الكبير قد ابتدأ وكان جميع النبلاء قد اجتمعوا فى الكنيسة .

وخلافا للمعتاد كان لابوشنيانو ذلك اليوم فى كامل أبهته الأميرية ، فعلى رأسه التاج الكبير ، وفوق قميصه البولندى من المخمل الأحمر كان يلبس - وفقا للزى العثمانى - معطفا طويلا من الفراء ، وأما السلاح فلم يكن يحمل منه غير خنجر ذهبى المقبض ، ومن خلال أزرار قميصه كان يلوح درع الزرد .

وبعد أن سمع القداس ، نزل عن مقعده الأميرى ، لكى يذهب إلى الماء المقدس ليرسم به علامة الصليب أمام الإيقونات ، وفى خشوع كبير اقترب من تابوت القديس يوحنا الصغير ، وأحنى ركبته لكى يقبل المخلفات المقدسة ، ويقول إنه كان فى تلك اللحظة بالغ الشحوب وأن مخلفات القديس أوشكت أن ترتعد .

وعندما عاد إلى مقعده التفت نحو النبلاء وقال :

. أيها السادة النبلاء ، منذ أن ارتقيت العرش وأنا أظهر نحو أغلبكم شدة بالغة ، ولقد كنت قاسيا فظيعا فأرقت دما كثيرا ، والله يعلم كم ندمت وكم أسفت ، ولكنكم تعلمون أن ما اضطرنى

لى ذلك إلا الرغبة فى إيقاف المنازعات وخيانات أولئك الذين كانوا يدبرون لهلاكى ولخراب البلاد ، وأما اليوم فقد تغير الموقف ، وعيون الناس قد زالت عنها الغشاوة فأدركوا أنه لايمكن أن يكون هناك قطيع بلا راع ، وكما قال المسيح «سأضرب الراعى فتتبدد النعاج» ، أيها السادة النبلاء فلنعش من الآن فى سلام ، وليحب بعضنا البعض كأخوة وفقا لاحدى الوصايا العشر التى تقول : «أحب أخاك الإنسان كما تحب نفسك» وليصفح أحدنا عن الآخر مادمنا جميعا فانين ولنصل لخلصنا يسوع المسيح ـ وهنا رسم علامة الصليب ـ لكى يغفر لنا خطايانا كما يغفر بعضنا لبعض خطاياه .

وبعد هذه الخطبة العجيبة تقدم إلى وسط الكنيسة ، ورسم علامة الصليب من جديد ثم التفت نحو الجميع ونظر أمامه أولا ثم عن يمينه وعن يساره وقال :

اغفروا لى أيها القوم وأنتم أيضا أيها السادة النبلاء .

«ليغفر لك الله يا صاحب العظمة» هكذا قال الجميع ماعدا شابين من النبلاء ظلا صامتين مستغرقين فى التفكير ، وهما مرتكنين إلى قبر بالقرب من باب الكنيسة ، ولكن أحدا لم يلاحظهما .

وخرج لابوشنيانو من الكنيسة وهو يدعو النبلاء إلى الوليمة التى أعدها لهم ثم امتطى حصانه واتجه نحو القصر وانفض الجميع .

وقال أحد النبيلين اللذين لم يمنحا الغفران للأمير إسكندر :

ما رأيك؟

وأجاب الآخر :

رأيي ألا نذهب إلى هناك

ثم اختفى الاثنان فى الجمع ، وكان سبانيوك وسنرويكى .

كانت استعدادات ضخمة قد اتخذت فى القصر لهذه الوليمة ، وكان قد ذاع أن الأمير قد تصالح مع النبلاء ، وكان النبلاء قد تلقوا فى غبطة هذا الحدث ، لأنه سيمكنهم من الحصول على مناصب جديدة ومن جمع ثروات جديدة بنهب الفلاحين ، وأما الشعب فلم يكترث لهذه المصالحة ، فهو لم يكن يأمل منها نفعا ولاضررا . . وكان الشعب يقبل إسكندر حاكما بينما كان يزمجر ضد موتزوك ، ذلك الوزير الذى لم يكن يستخدم نفوذه عند الأمير إلا فى اضطهاد ، كلما رفع التظلمات التى يشكو منها من نهب موتزوك ، وكان لابوشنيانو لايرد عليها ، أو لايلقى إليها بالا .

وباقتراب موعد الوليمة أخذ النبلاء يصلون كل على جواده ، مصحوبا باثنين أو ثلاثة من الخدم ، ولاحظوا أن صحن القصر كان مليئا بالجنود المرتزقة المسلحين ، وأن أربعة مدافع كانت مصوبة نحو المدخل ، ولكنهم ظنوا أنها وضعت هناك لإطلاقها - كما جرت العادة - احتفالا بتلك المناسبة المبهجة ، وإذا كان البعض قد خشى أن تكون هناك مكيدة ، فإنهم بعد دخولهم لم يستطيعوا الارتداد وذلك لأن الأبواب كانت محروسة ، وكان الحراس قد تلقوا الأمر بألا يسمحوا لأحد بالخروج .

وما أن تجمع النبلاء وعددهم سبعة وأربعون نبيلا حتى جلس لابوشنيانو علي رأس المائدة وعن يمينه بتروتوزان رئيس الديوان وعن يساره الوزير مع موتزوك ، ونفخ فى البوق فأخذت أطباق الطعام تصل .

وفى ذلك الوقت لم يكن ذوق الطعام مرهفا في ملدافيا ، فحتى في أكبر الولائم كانوا يقتصرون على قليل من الألوان ، فكان هناك الحساء البولونى ثم أطباق يونانية بالخضر الطافية في الزيت ، والأرز التركى ، وأخيرا أنواع مختلفة من اللحوم المحمرة ، وكانت المفارش والفوط من نسيج رقيق ينسج في البيوت ، وكانت الصوانى التى يحمل عليها الطعام والأطباق والكؤوس كلها من الفضة ، وعلى طول الجدار كانت تصف الدنان الكبيرة المنبعجة ، مليئة بنبيذ أودوبستى وكتنارى ، وخلف كل نبيل وقف خادم يسكب له الشراب ، وكان جميع هؤلاء الخدم مسلحين .

وفى صحن القصر إلى جوار بقرتين كبيرتين أو أربعة كباش محمرة ، كانت هناك ثلاثة براميل نبيذ مفتوحة ، وكان الخدم يشربون ويأكلون كما يشرب ويأكل النبلاء ، وكانت جميع الرؤوس قد أخذت تدب فيها الحميا ، وقد أخذ النبيذ يعمل عمله ، فالنبلاء يقدحون كؤوسهم فى جلبة ويشربون على صحة الأمير ، والجند المرتزقة يجاوبونهم بصيحات مرحة وطلقات المدافع تزأر .

واقتربت الوليمة من نهايتها عندما رفع فيفرتسا رأسه وهو يقول : «إننى أرجو لك حياة طويلة ياسيدى! فلتحكم فى سلام

فى هذه البلاد ، وليثبك الله فيك برحمته ، نيتك الطيبة فى ألا تهلك النبلاء بعد الآن ، وألا تظلم الشعب . .»

ولم يتم حديثه إذ ضربه قائد الشرطة بالمدقة على جبهته فخر ميتا .

وصاح قائد الشرطة قائلا : آه! أتسبون الأمير؟ اهجموا عليهم أيها الرجال» . . وبسرعة استل الخدم الواقفون خلف النبلاء خناجرهم وأخذوا يضربون ، كما دخل الجنود المرتزقة بقيادة ضابطهم وانقضوا على النبلاء بالحراب ، وذلك بينما سحب لابوشنيانو الوزير موتزوك من يده نحو النافذة المفتوحة وأخذ يتأمل المذبحة التى ابتدأت وهو يضحك ، بينما موتزوك تصطك أسنانه وشعر رأسه يقف وهو يحاول الضحك أيضا إرضاء لسيده ، وكان هذا المشهد الدامى فى الواقع منظرا بشعا ، ولنتصور صالة طولها خمسة عشر قدما وعرضها اثنا عشر وبها حوالى المائة من القتلة المصممين على القتل - أي جلادين - ومن المحكوم عليهم بالإعدام ، فريق يدافع بجنون اليأس وفريق بسورة الحميا ، ولكن النبلاء الذين لم يتوقعوا مثل هذا الغدر والذين حضروا مجردين من السلاح لم يستطيعوا الصمود فى الدفاع ، فأخذوا يتساقطون من الضربات الجبانة التى تلقوها من الخلف ، وكان الشيوخ منهم يموتون وهم يرسمون الصليب ، بينما دافع عدد من الشبان عن أنفسهم فى جنون مستخدمين في ذلك كل ماوصلت إليه أيديهم ، من كراسى وأطباق ومعالق ، كما أن البعض كان يطبق على رقبة

قاتله رغم مابه من جروح ويكاد يخنقه ، ومن كان ينجح منهم فى انتزاع حربة كان يقتضى ثمنا باهظا لحياته .

وقتل عدد من الجنود المرتزقة ، ولكن أحدا من النبلاء لم يفلت من القتل عند نهاية المذبحة ، فالسبعة وأربعون جثة كانت ممدة على الأرض ، وفى تلك المعركة انقلبت المائدة وتحطمت الدنان واختلط النبيذ بالدم مكونا بركة فوق البلاط .

وبينما كانت المذبحة دائرة فى أعلى كان القتل يدور أيضا فى صحن القصر ، وعندما رأى خدم النبلاء أنفسهم وهم يهاجمون غدرا ، أخذوا يهربون ، ومن استطاع منهم الهرب بتسلق الجدران جرى ليستنفر بيوت النبلاء ويدعو إلى العون الخدم الآخرين ، وبذلك أثاروا الشعب ، وراحت المدينة كلها تجرى نحو أبواب القصر وتهاجمها بضربات البلط .

وكان الخمار قد أثقل الجند فلم يقاوموا إلا مقاومة ضعيفة بينما أخذت الجموع تزداد حمية .

وعلم لابوشنيانو بهياج الشعب فأرسل قائد الشرطة لكى يسأل الشعب عما يريد وعما يطلب .

وقال الأمير وهو يلتفت نحو وزيره :

والآن يا موتزوك أو ما ترانى على حق فى التخلص من كل هؤلاء الأشرار ، وفى تخليص البلاد من مثل هذا الطاعون؟

وأجاب هذا التابع الحقير بقوله : «إن مافعلته يا سيدى فى منتهى الحكمة ، ومنذ زمن طويل كنت أفكر فى أن أنصح به يا

صاحب العظمة ، ولكن حكمتك سبقت نيتى ، ولقد أحسنت صنعا بقتلهم وذلك لأن . . لأن . . بدون تلك . .»

وقاطع لابوشنيانو موتزوك الذى أخذ يتلعثم قائلا :

ولكنى ألاحظ . . ثم أضاف :

ـ بودى أن آمر بإطلاق المدافع على هولاء الرعاع

ـ فليكن . . ولتطلق المدافع عليهم ، وأى بأس فى قتل عدد من هؤلاء الأجلاف إذا كان كل هؤلاء النبلاء أنفسهم قد هلكوا . . نعم فليقتلوا جميعا .

وأجاب لابوشنيانو باشمئزاز :

لقد كنت أتوقع هذه الإجابة ، لكن لنسأل أولا عما يريدون؟

وفى تلك الأثناء كان مدير الشرطة يطل من أعلى الأسوار على الجمهور ليصيح به قائلا : «أيها الناس إن صاحب العظمة الحاكم يريد أن يعرف ماذا تريدون وماذا تطلبون ولماذا ثرتم؟!»

وظل الناس فاغرى الأفواه ، فهم لم يتوقعوا مثل هذا السؤال .

وكانوا قد حضروا دون أن يعرفوا لماذا ، كما أنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يريدون ، ثم أخذوا يكونون جماعات صغيرة ، ويسأل بعضهم بعضا عما يجب أن يطلبوه ، وأخيرا أخذوا يصيحون : «فلتخفيض الضرائب! ولتوقف اجراءات ملاحقتنا من أجل الديون! ليوقف نهبنا! . . إننا فى بؤس ولم يعد لدينا مال! . . لقد سلبنا موتزوك كل شىء؟ موتزوك موتزوك هو الذى سلخنا ونهبنا!

إنه مستشار الحاكم! ألا فليقتل! . . موتزوك يجب أن يموت! إن رأس موتزوك هي التي تريد»!

ولاقت هذه العبارة الأخيرة صدى في كل القلوب فأصبحت كالشرارة التي تشعل نارا عاتية ، فتجمعت جميع الأصوات لتكون صيحة واحدة هي : «إن رأس موتزوك هي التي نريد» .

وعندما رأى لابوشنيانو قائد الشرطة داخلا سأله : ما الذي يريدون؟!»

فأجابه قائلا : رأس الوزير موتزوك»

وانتفض هذا الأخير كمن لدغته أفعى قائلا :

ـ ماذا؟ . . ماذا تقول؟ لابد أنك أسأت السمع يا صديقي . . لعلك تمزح ، ولكن الوقت ليس وقت مزاح . . مامعنى هذه الكلمات؟ ولماذا يريدون رأسي . . إنك أصم لم تحسن السمع .

وقال الحاكم : «بل نعم . . استمع أنت فصيحتهم تصل إلى هنا» .

وبالفعل كان الجند قد أوقفوا المقاومة وكان الشعب قد أخذ يتسلق الجدران وهو يصيح بملء حنجرته :

«فليسلم إلينا موتزوك! إن رأس موتزوك هي التي نريد!»

وصاح هذا المجرم قائلا : «آه . . يا لتعاستي . . أيتها العذراء النقية لاتتركيني أهلك! ماذا فعلت في هؤلاء الناس يا أم الإله انقذيني . . وأقسم أن ابني كنيسة وأن أصوم بقية أيامي ، وأن

أطلى بالفضة عرشك المقدس القائم فى دير نيامتزو . . أيها الأمير البالغ الرحمة لاتصغ إلى هؤلاء الفلاحين الأجلاف! أصدر أوامرك بضربهم بالمدافع وليهلكوا جميعا ، فأنا نبيل كبير وماهم إلا فلاحين أجلاف» .

وأجاب لابوشنيانو فى برود «فلاحون نعم! ولكنهم كثيرون أليست خسارة أن نقتلهم جميعا من أجل فرد واحد؟! . . إنى أحتكم إليك . . اقبل الموت من أجل هذا البلد الذى كما كنت تقول لى من قبل لايريدونى ولايحبنى! وإنى لسعيد إذ أرى الشعب يكافئك عن الخدمات التى قدمتها إلىّ ، أنت الذى باع جيشى فى أنطون زكلى ثم تخلى عنى لى ينضم إلى تومسا» .

وصاح موتزوك وهو يشد لحيته بعد أن أيقن من كلمات الطاغية ، أنه لا أمل فى النجاة : «يالتماستى! . . دعنى على الأقل أعود إلى بيتى لأرتب شئونه! ارحم زوجتى وأطفالى! دعنى أؤدى شعائر الاعتراف فى الكنيسة!» ، ثم أخذ يبكى ويصيح وينتحب .

فصاح به لابوشنيانو قائلا : «كفى! لاتنتحب كالمرأة! كن شجاعا كرومانى أصيل! وماجدوى الاعتراف؟ وماذا يمكن أن تقول للقس؟ هل تقول إنك لص وخائن وملدافيا تعلم ذلك؟! هيا خذوه وسلموه للشعب ، وقولوا له هكذا يجازى الأمير إسكندر كل من ينهبون البلاد» .

وفورا قبض عليه قائد الشرطة وضابط الجنود المرتزقة وأخذا يجرانه ، وهو يعوى بكل قواه ويحاول أن يقاوم ، ولكن ماذا تستطيع

يدا عجوز إزاء أربع أيد قوية! وحاول أن يستخدم ساقيه كمتراسين ، ولكنه أخذ يصطدم بجثث النبلاء الآخرين وينزلق فوق الدماء التى كانت قد تجمدت على البلاط ، وأخيرا خارت قواه ، وسحبه أعوان الطاغية خارج القصر وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وألقوا به إلى الجموع .

ووقع هذا النبيل التعس فى أيدى ذلك التنين الذى مزقه إربا فى أقل من لحظة .

وقال رسل الطاغية : «هكذا يعاقب الأمير إسكندر من ينهبون هذا البلد» .

ورد الجمهور قائلا : «فليحيا صاحب العظمة الحاكم!» واكتفى بهذه الضحية وانصرف .

وبينما كان موتزوك التعس يهلك على هذا النحو ، كان لابوشنيانو قد أصدر الأوامر برفع أدوات المائدة ومفارشها ، ثم قطع رؤوس جميع النبلاء المقتولين وإلقاء جثثهم من النافذة .

ثم أخذ الرؤوس وصففها على مهل وسط المائدة واضعا فى الصفوف السفلية رؤوس النبلاء الأقل شأنا ، وفى الصفوف العلوية رؤوس الأكثر شأنا وفقا لانسابهم وألقابهم ، حتى اكتمل أمامه هرم من سبع وأربعين رأسا ، وعلى قمته رأس بيرهم حامل الأختام .

وبعد أن غسل يديه اتجه نحو باب سرى ودفع المزلاج والقضيب الخشبى الذى كان يغلقه ، ثم دخل إلى مقصورة الأميرة .

ومنذ بدء هذه المأساة كانت الأميرة روكسندرا لا تعرف شيئا

عـمـا يجـرى ، ولكنهـا مع ذلك كـانت تشـعـر بالقلق ، ولم يكن باستطاعـتها أن تعلم سبب الضجة التى سمعتها ، لأن النساء - كما كانت العادة عندئذ - لم يكن يخرجن من مقاصيرهن ، كما أن الخـادمـات لم يجـرؤن على المخـاطرة بأنفسـهن ، وسط جـيش لايعرف أى نظام ، ومع ذلك فإن واحدة منهن أكثر جرأة كـانت قد خـرجت ، وعندمـا سـمـعت عن حركـة تمرد ضد الحـاكم جـاءت لتخطر سيدتها .

وكانت الأميرة الطيبة ترتعد خوفا من غضب الشعب ، وعندما دخل عليـهـا إسكندر وجـدها تصلى أمـام الأيقـونة ومن حـولهـا أطفالها .

وصـاحـت قـائلة : «آه . . هأنت ذا . . شكرا لله! لقـد كنت فى خوف شديد» .

- لقد أعددت لك مايشفيك من خوفك على نحو ما وعدتك تعالى معى ياسيدتى!

ولكن مـاذا كـانت تلك الصـيـحـات وذلك العـواء الذى كنت أسمعه؟

- لاشىء! . . إن الخدم كانوا يتشاجرون ، ولكنهم هدأوا الآن .

ثم أخذ روكسندرا من يدها وقادها نحو الصالة . . وعندما رأت ذلك المشـهد المخيف صرخت صرخة فظيعة وأغمى عليها ، فقال لابوشنيانو وهو يبتـسم : «المرأة هى المرأة دائما ، فهى تفزع عندما ينبغى عليها أن تبتهج »!

وأخذها بين ذراعيه وحملها إلى مقصورتها ثم عاد بعد ذلك إلى الصالة حيث قائد الشرطة وضابط الجنود المرتزقة ينتظرانه .

وقال للضابط : «تول أنت قذف جثث هؤلاء الكلاب من فوق الأسوار ، وصفف رؤوسهم على الجدران ، وأما أنت يا قائد الشرطة فلتحضر إلى سبانكيوك واسترويكى» . ولكن سبانكيوك واسترويكى كانا الآن بالقرب من نهر دنيستر ، وكان أعوان الأمير الذين لاحقوهما قد أدركوهما فى نفس الوقت الذى أخذا يعبران فيه النهر وقد صاح بهم سبانكيوك قائلا :

«قولوا لمن أرسلكم إننا سنلتقى قبل أن نموت»!

-٤-

«إذا حدث أن شفيت فإننى أنا أيضا سأحمل البعض على ارتداء المسوح»

منذ ذلك المشهد كانت أربع سنوات قد مرت لم يأمر خلالها الأمير إسكندر بإعدام أحد من النبلاء ، وذلك وفاء بالوعد الذى كان قد قطعه للأميرة روكسندرا ، ولكنه أخذ يشبع نهمه الطاغى إلى رؤية الناس يتألمون باختراع أنواع مختلفة من التعذيب .

كان يفقأ الأعين ويقطع الأيدى ويشوه كل من يشك فيهم ، وإن تكن شكوكه على غير أساس ، لأن أحدا لم يعد يجرؤ أن يهمس ضده .

وبالرغم من كل ذلك لم يكن مطمئنا لأنه لم يستطيع أن يضع يده على سبانكيوك وسترويكى ، اللذين أقاما فى كامينتزا «فى

أوكـرانيـا» فى انتظار وترقب اللحظة المناسـبـة ، وبالرغم من أن إسكندر كـان له صـهـران من الأمـراء ذوى النفـوذ فى البـلاط البولونى ، فإنه كـان يخشى أن يستنفر هذين النبيلين البولنديين اللذين كانا يترقبان أية تعلة لكى يدخلا ملدافيا ، ولكن هذين الرومانيين كانا أكثر وطنية من أن يجهلا أن الحرب ودخول جيوش أجنبية معناه نهاية وطنهما .

وكان لابوشنيانو قد دعاهما مرارا إلى العودة مقسما بأغلظ الإيمان أنه لن يسىء إليهما ، ولكنهما كانا يعرفان جيدا قيمة هذا القسم ولكى يحكم لابوشنيانو رقابته عليهما أقام فى قلعة هوتان التى قوى استحكاماتها ، ولكنه أصيب بالتيفوس ثم استشرى فيه المرض سريعا حتى دنا به من حافة القبر .

وأثناء هذيانه لاح له أنه يرى جميع ضحايا قسوته الفظيعة ، وهم يهددونه ويرعبونه ويدعونه إلى الحساب أمام الله ، وعبثا كان ينقلب فى فراش ألمه بحثا عن الراحة .

واستدعى مطران المدينة تيوفان والقسس والنبلاء وقال لهم إنه قد وصل إلى نهاية حياته وطلب منهم الغفران فى تضرع ، ثم ابتهل إليهم لكى يرأفوا بابنه روكدان وارث العرش ويساعدوه ، لأنه غض الإهاب ومحاط بأعداء أقوياء لايستطيع مقاومتهم كما لايستطيع الدفاع عن البلاد بدون اتحاد النبلاء وإخلاصهم وطاعتهم .

ثم أضاف قائلا : «وأما عن نفسى فقد اعتزمت إذا شفيت أن

انقطع للعبادة فى دير سلاتينا وأن أطلب الغفران حتى تحين نهايتى ، ولهذا أرجوكم أيها الآباء أن تخففوا عنى مواعظكم عندما تروننى اقترب من الموت» .

ولم يستطيع أن يقول أكثر من ذلك ، إذ أخذته التشنجات وتصلب جسمه فى إغماءة شبيهة بالموت ، حتى أن مطران المدينة والقسس ظنوه يقترب من نهايته فخففوا عنه المواعظ ونادوه باسم «بيس» - وهو صيغة التدليل لبترو ، الاسم الذى كان يحمله قبل أن يصبح أميرا .

وبعد ذلك حيوا الأميرة روكسندرا كوصية على العرش حتى يبلغ ابنها القاصر سن الرشد ، وأعلنوا روكدان أميرا لمولدافيا ، ثم انطلق الفرسان نحو النبلاء سواء منهم من كان فى البلاد ومن كان فى المنفى ونحو قواد الجيش .

وعند هبوط الليل وصل سبانكيوك واستروبكى وما أن وطئت أقدامهما الأرض عند بعض الأصدقاء حتى اتجها مسرعين نحو الحصن الذى كان صامتا ومهجورا وكأنه قبر عملاق ، ولم يكن يسمع غير خرير مياه الدنيستر الرتيب وهى تصدم الجدران الرمادية العالية ثم صيحات جنود الحرس المملة ، وهم يلوحون فى ضوء الشفق مستندين إلى رماحهم الطويلة ، وعندما وصل النبيلان إلى القصر أدهشهما ألا يلتقيا بأحد وأخيرا دلهما أحد الخدم على حجرة المريض ، وعند دخولهما سمعا ضجة كبرى ووقفا يصغيان .

كان لابوشنيانو قد صحا من إغمائه .

وعندما فتح عينيه رأى راهبين واقفين : أحدهما عند وسادته والآخر عند نهاية الفراش بلاحراك كتمثالين من برونز ، وألقى بنظرةعلى جسمه فرآه مدثرا فى معطف ، ومسوح راهب ملقى بالقرب منه وأراد أن يرفع يده غير أن مسبحة من الصوف عاقته ، وظن أنه يحلم وأغلق عينيه ، ولكنه عاد ففتحهما ، ورأى نفس الأشياء : المسبحة والمسوح والرهبان .

وسأله أحد الرهبان عندما رآه لاينام قائلا :

كيف حالك أيها الأخ بيسى؟»

وذكره هذا الاسم بكل ماحدث ، وصعد الدم إلى رأسه ، ونهض قليلا وهو يقول : «ماهذه الوحوش . . آه . . إنكم تعبثون بى!» اخرجوا من هنا يا حثالة القسس! اخرجوا وإلا قتلتكم جميعا عن بكرة أبيكم» .

ونظر حوله ليتبين ما إذا كان هناك سلاح فى متناوله ، ولكه لم يجد إلا المسوح ، الذى ألقاه فى هياج على رأس أحد الرهبان .

وعندماسمعت الأميرة وابنها ومدير البلدية والنبلاء والخدم صيحاته ، هرعوا جميعا إلى حجرته .

وفى هذه اللحظة وصل النبيلان اللذان كانا يسترقان السمع من خلف الباب .

وقال لابوشنيانو بصوت مبحوح فظيع : آه . . «لقد ألقيتم المعطف فوقى وأنتم تظنون أنكم ستتخلصون منى! نحوا الغشاوة عن أبصاركم ، إن الله أو بالأحرى الشيطان سيرد لى صحتى ، وعندئذ . .»

وقال الأسقف مقاطعا : «لاتجدف أيها التعس! إنك فى ساعتك الأخيرة! اذكر أيها المذنب التعس أنك الآن راهب ولمْ تعد أميرا! أذكر أن تجديفك هذا وصيحاتك تلك تفزع هذه المرأة المسكينة البريئة ، وهذا الطفل الذى هو كل أمل ملدافيا» .

فرد المريض وهو يجاهد لكى ينهض من الفراش :

«اخرس أيها الوحش المنافق! أنا الذى جعلتك أسقفا وأنا الذى سأعزلك . . آه . . لقد ألقيت فوقى المعطف ، ولكننى إذا شفيت سوف ألقيه أنا على الكثيرين . . وأما عن هذه الكلبة فسأقطعها إربا هى وابنها ، لكى أعلمها ألا تصغى بعد إلى نصائح هؤلاء الوحوش أعدائى ، لقد كذب من قال لك إننى راهب . . إننى لست راهبا بل أميرا! إننى الأمير إسكندر ! إلىّ بأتباعى! أين رجالى الشجعان؟ اضربوا! اضربوا حتى النهاية! إننى آمركم! اقتلوهم جميعا! ولا ينجون منهم أحد! آه إننى اختنق! إلىّ بالماء! . . الماء! . . الماء!»

ثم خر فوق سريره وهو يلهث من الغضب والهياج .

وخرج الأسقف والأميرة حيث وجدا سترويكى وسبانكيوك فى انتظارهما عند الباب .

وقال اسبانكوك وهو يمسك الأميرة من يدها : «ياسيدتى يجب أن يموت هذا الرجل فورا . . هاهو مسحوق ضعيه فى كأسه . .

فصاحت وقد تملكها الذعر : «سم؟!»

ورد سبانكيوك قائلا : «نعم سم! وإذا لم يمت هذا الرجل فورا

فإن إمارتك أنت وابنك تتعرض للخطر ، لقد عاش الأب مايكفى ، كما ارتكب مايكفى من الجرائم ، يجب أن يموت الأب لكى يستطيع الابن أن يعيش .

وخرج خادم من حجرة المريض فسألته الأميرة :

«ما الأمر؟»

لقد استيقظ المريض وهو يريد ماء ويطلب ابنه ، وقد طلب إلىّ ألا أعود بدونه ، فصاحت الأم الحنون وهى تضم فى لهفة الطفل إلى صدرها : «آه . . إنه يريد قتله!»

وأضاف سبانكيوك قائلا : «لم يكن هناك وقت للتردد يا سيدتى تذكرى حكم الطاغية ستيفانتزا[1] ، واختارى بين ابنك وزوجك ، واستدارت المرأة المسكينة نحو الأسقف وعيناها تسحان الدموع قائلة : وما رأيك يا أبى؟»

إن هذا الرجل قاس وفظيع يا بنيتى ، فاستمدى الرأى من الله مولانا ، وأما أنا فسأشرع فى الإعداد للرحيل مع ملكنا الجديد ، وليغفر الله لمن كان أميرنا ، وليغفر لك أنت أيضا .

هكذا قال الأسقف الورع ثم أخذ ينصرف .

وتناولت الأميرة روكسندرا من يد إحدى الخادمات كأسا من الفضة مليئة بالماء ، وفى غير وعى منها تقريبا وتحت ضغط النبلاء

---

(١) هو الأمير ستيفان الصغير الذى حكم ملدافيا من ١٥١٧ ـ ١٥٢٧ وقد قتل الوصى عليه ثم مات هو نفسه فيما يقول الرواة مسموما على يد زوجته التى حرضها البولنديون .

أسقطت فيه السم ، ودفعها النبلاء إلى حجرة المريض .

وسأل سبانكيوك ستروبكى الذى كان قد وارب الباب لكى ينظر : ماذا يفعل؟

إنه يطلب ابنه ، ويقـول إنه يريد رؤيتـه . . إنه يطلب مـاء . . الأميرة ترتعد . . إنها تقدم له الكأس . . إنه لايريد أخذها .

ووثب سبانكيوك واستل خنجره .

لا . . إنه يأخذها . . إنه يشرب الآن . . ألا شكرا لك يارب!

وخرجت الأميرة روكسندرا شاحبة ترتعد واستندت إلى الحائط .

وقالت وهى تبتسم : «إنكم أنتم الذين ستحاسبون أمام الله ، لأنكم أنتم الذين دفعتمونى إلى ارتكاب هذه الخطيئة» .

فدخل الأسقف ليقول للأميرة : «فلنرحل!»

ولكن من الذى سيعنى بهذا البائس؟

ورد النبلاء قائلين : «نحن»

وقالت للأسقف : «آه يا أبى . . ماذا نصحتنى أن أفعل؟!» ثم انصرفت معه وهى تبكى .

ودخل النبلاء إلى حجرة المريض .

وكان السم لم يفعل بعد فعله ، ولابوشنيانو ممدد على ظهره فى هدوء ، ولكنه بالغ الضعف ، وعندما دخل النبيلان نظر إليهما طويلا ولم يعرفهما ، فسألهما من يكونان وماذا يريدان .

وأجاب أحدهما : «أنا . . أنا ستروبكى»

وأضاف الآخر : «وأنا سبانكيوك ، ومانريده هو أن نراك قبل أن تموت كما وعدنا» .

فتنهد إسكندر قائلا : «آه . . أعدائى» .

واستمر سبانكيوك قائلا : «أنا الذى أردت قتله عندما أهلكت السبعة وأربعين نبيلا ولكنى أفلت من براثنك ، أنا سبانكيوك الذى جردته من أملاكه حتى اضطرت زوجته إلى أن تستجدى على أبواب الطيبين من الناس» .

وصاح المريض وهو يضغط بيديه على بطنه : «آه! . . ما هذه النار التى تلتهمنى!»

صل صلاتك الأخيرة لأنك ستموت ، والسم أخذ يعمل عمله .

آه . . لقد سممتمونى أيها المجرمون! . . يا إلهى أشفق بروحى! آه يا لها من نار! أين الأميرة؟ أين ابنى؟

لقد رحلوا وتركوك معنا

لقد تخلوا عنى وتركونى معكم! آه . . اقتلونى فلا أريد أن أتعذب أكثر من هذا؟

ثم التفت إلى استرويكى قائلا : «اطعنى أنت بالخنجر! ارحمنى! أنت الأصغر سنا! خلصنى من العذاب الذى يمزقنى ، اطعنى بالخنجر!»

لن أدنس خنجرى الشجاع بدم بغيض لطاغية مثلك .

وازدادت الآلام . . وأخذ المسموم يتلوى فى تشنجات عنيفة ، وصاح : آه! إن روحى تحترق! إلىّ بالماء! أعطونى شيئا أشربه» .

وقال سبانكيوك وهو يتناول الكأس الفضية من فوق المائدة : «خذ هذه ففيها ثمالة من السم اشربها وانتعش بها» .

وقال المريض وهو يضغط على أسنانه : «لا! لا! لا أريد!» .

وأمسك به ستروبكى ليمنعه من الحركة بينما فتح سبانكيوك بسن رمحه أسنانه ، لكى يبتلع السم الذى تبقى فى الكأس ، وأخذ لابوشنيانو يخور كما يخور الثور أمام القرمة والبلطة التى سيضرب بها ، ثم حاول أن يستدير نحو الحائط .

فقال النبلاء : «كيف ذلك؟ أتريد أن تتجنب رؤيتنا؟ إن عقابك هو أن ترانا! تعلم الموت يامن لم يعرف لحياته غير القتل» .

وأمسك به الاثنان ومنعاه عن الحركة وهما ينظران إليه فى نشوة جهنمية ، ويقرعانه بما ارتكب من جرائم .

أخذ الأمير التعس يتلوى فى تشنجات الاحتضار ، وهو يرغى ويصر بأسنانه ، وقد برزت عيناه من رأسه ، وانثال فوق وجهه عرق ثلجى كنذير كئيب بالموت ، وبعد نصف ساعة من التلوى بالعذاب أسلم روحه بين جلاديه .

تلك كانت نهاية اسكندر لابوشنانو الذى لطخ تاريخ ملدافيا ببقعة من الدم .

وفى دير تاتينا الذى بناه ودفن فيه يستطيع الإنسان أن يرى اليوم صورة هذا الأمير هو وأسرته .

إيون كريانجا ١٨٣٧ ـ ١٨٨٩

كريانجا هو أكبر قصاص رومانى ، وقد ولد فى أسرة من الفلاحين الأميين ، ولكنه تثقف وأصبح قسيسا ثم معلما أوليا ، وكان يتمتع بالذكاء والخيال والحساسية وروح الدعابة التى يمتاز بها فلاحو ملدافيا .

وكان كريانجا يملك عبقرية الرواية الشفوية التى جعلته يتفوق تفوقا لامثيل له فى حكاية القصص والطرائف الشعبية الملدافية .

وفى سنة ١٨٧٥ بناء على نصائح صديقه الكبير الشاعر ميخائيل ايمنسكو أخذ يكتب ذكرياته ويسجل الحكايات والقصص الخرافية التى تغذت بها طفولته ، وإذا بواحد من كبار القصاصين يظهر فى رومانيا بفضل «ذكريات طفولته» التى لاتنسى ، من جهة وقصصه من جهة أخرى ، أمثال «الحماة وزوجات أبنائها الثلاث» ، و«المعزة ذات الجديان الثلاثة» ، و«كيس النقود ذو الفلسين» ، و«دانيلا بريبيلياك» ، و«قصة الخنزير» ، وحكاية ستان المسلوخ» ، و«قصة هاراب ألب» ، و«إيفان الخلاة» ، و«الأب نيكيور الخلنجى» ، و«الأب إيون رواتا» و«الاتحاد» . . الخ

وحياة القرية الرومانية كلها بأخلاقها ومعتقداتها وقصصها الخرافية وصورة فلاح ملدافيا المرهق بالعمل ، البسيط المنصف العاقل المرح ، كل هذا يبرز فى قصص كريانجا ذات الأسلوب الغض ذى العصير الشعبى الذى يحتفظ بنضرة خالدة .

الأب نيكيفور «الحلنجى»

ليس الأب نيكيفور شخصية خرافية ، فنيكيفور قد وجد وعاش فعلا فى قرية تتويينى ضاحية مدينة ترجول نيامترولى فى ملدافيا بالقرب من قرية فيناتورى نيامتزولى ، وقد عاش تقريبا فى الفترة التى كان جد جدى يلعب فيها موسيقى القرب فى حفل التعميد الذى أقامه ببيته ديديو العجوز فى قرية فيناتورى! وكان الإشبين وهو الأمير باكيه نفسه الذى قدم له العجوز ديديو هدية مكونة من تسعين حملا لكل منها - بغير استثناء - عين محاطة ببقعة سوداء! وكان القسيس عما لعم أمى كلوبوك قارع أجراس دير نياموتزو ، وقد أطلق عليه اسم القارع لأنه صب لهذا الدير على نفقته الخاصة ناقوسا كبيرا كان يحب أن يقرعه بنفسه فى أيام الأعياد الكبرى ، وهكذا عاش الأب نيكيفور فى ذلك الزمن فى قرية تتويينى .

كان الأب نيكيفور حوذيا بمهنته ، وبالرغم من أنه لم يكن يملك كأسواط - غير حبال من الزيزفون - فإن عربته كانت متينة ومريحة وواسعة ، والمظلة الكبيرة التى تغطيها تمنع المطر والشمس من دخولها وصندوق الزيت وعدة التشحيم والكوريك وكانت كلها معلقة فى السهم .

وأثناء السير كان يحتك بعضها ببعض فتحدث الصوت : كراك كراك كراك! وفى الحلقة الحديدية المدلاة من الدرابزين - فى أسفل ناحية اليسار - كانت بلطة صغيرة معلقة معدة للاستعمال عند

الحاجة وكانت هناك مهرتان بيضاوان كالثلج ، وملتهبتان كالجمر تحملان النير دائما تقريبا ، وأقول تقريبا لأن الأب نيكيفور كان تاجر مواشى أحيانا ، وعندما يلوح له الربح لم يكن يتردد فى أن يبيع أو أن يقايض على إحدى هاتين المهرتين حتى ولو كان فى طريق السفر ، وكان النير يظل أحيانا معلقا فى الفضاء .

وكان هذا العجوز يحب دائما المهار الصغيرة الجميلة ، وكان هذا موضع ضعفه ، ولقد تسألوننى ولماذا يفضل المهار دائما ، والمهار البيضاء؟ وسأقول لكم السبب ، فهو يفضلها لكى تنجب له ، وهو يفضل البيضاء لأنها كما يقول تغنيه عن مصباح الليل!

ولا نعتقد أن نيكيفور كان يجهل المثل السائر الذى يقول إنه من الأفضل دائما ألا تكون حوذيا لخيول بيضاء ولا خادما عند امرأة فهو يعرفه جيدا ، ولكن المهار كانت له ، وإذا اعتنى بها فحسنا يفعل ، وإذا لم يعتن فمن الذى سيؤنبه على ذلك!

والأب نيكيفور لم يكن ليقبل قط أن يعمل حوذيا على عربة نقل ، وكان يتجنب حمل الأشياء الثقيلة خوفا من أن يصاب بقيلة فى خصيته! وكان يقول : إن العمل على عربة ركوب أفضل بكثير لأن الإنسان يتعامل عندئذ مع البضائع الحية التى تنزل عندما يصعد الطريق أو ينزل ، ثم عند الوقوف إلى أن يصيح الإنسان : إلى العربة سيداتى وسادتى!

وكان الأب نيكيفور قد جدل بيديه سوطا من الكتان ذا طرف من الحرير ، وكان يفرقع به فرقعة تصم الآذان ، وفى كل مرة تسير

العربة فى طريق صاعد كان ينزل من مقعده ليجر العربة مع مهاره ، سواء أكانت تلك العربة محملة أم لا ، وعندما ينحدر الطريق كان يفعل نفس الشيء حتى لايضنى خيله العزيزة ، وكان على زبائنه أرادوا أم لم يريدوا أن يترجلوا هم أيضا ، وإلا لما كف الأب نيكيفور عن الزمجرة وإرسال العبارات اللاذعة من مثل قوله : هلا نزلتم قليلا أيها السادة فالحصان حيوان لايعرف الكلام!

وأما إذا عرف الإنسان كيف يستأنسه بتقديم كأس صغيرة فعندئذ لايكون هناك من هو ألطف من الأب نيكيفور ، وعندما كان يلتقى برجل يركب حصانا كان يصيح به : ما هذا أيها الغضنفر لقد سبقتنى وتركتنى خلفك .

أليس كذلك أيها السيد؟ ثم يطلق سوطه فى مهارة وهو يغنى :

أيتها البيضاء إلى الخلف

أيتها البيضاء إلى الأمام

النير يتدلى من ناحية

هوبا مهرتى تعدو كشمانية

لأن جالتزى على بعد خطوتين

وإذا التقى فى الطريق بنساء أو آنسات أخذ يغنى أغنيات فكهة توافق مزاجه مثل :

عندما تزوجت من عجوزتى

بكت ثمان عاشقات

ثـــــــــــــلاث ذات أزواج

وخـــــــمس من بنات بلدى

آه! . . كيف لايشوقنا السفر وبخاصة فى شهر مايو مع مثل هذا الرفيق اللطيف الذى لاتعوزه النكتة الفكهة ، ولكن أحيانا عندما يمر أمام فندق فيتظاهر صاحبه بعدم رؤيته له فلايقدم له شيئا من شراب ، تراه يزمجر ، ولكنه مع ذلك يحث الخطى نحو الفندق التالى .

وفى فترة ما اشترى الأب نيكيفور مهرتين تعدوان عدوا عجيبا ولم يكن فيهما غير عيب واحد ، وهو توقفهما ـ مهما يكن من أمر ـ عند كل ملهى ، وذلك لأنه كان قد اشتراهما من قسيس!

فلم تكن هناك عندئذ مطافىء تستطيع أن تبيعه مهارا أخرى قادرة على أن تعدو دون توقف .

ويؤكـد والدى أنه سمع من العجائز نقلا عن الأب نيكيفور نفسه أن مهنة العربجى فى ترجوى نيامتز ولى ، كانت قديما مهنة طيبة ، إذ كان لديه من الزبائن أكثر مايلزمه ، ولم يكن يكاد يغادر فراتيك حتى يصل إلى أجابيا ، ولايبرح أجابيا حتى يدخل سريعا إلى فراتيك ، ومنها يعدو إلى رازبويينى حيث الأديرة المليئة بالرهبان وحيث الزبائن الذين لايعرف ماذا يفعل بهم ، وكان عليه أن ينقلهم حينا إلى بياترا وحينا آخر إلى بولتيشينى ثم إلى الأسواق وإلى جميع الأديرة مثل دير نيامتزو ودير سيكو ، ثم إلى ابتيسكا فضلا عن أعياد القديسين .

وقال والدى أيضا إنه سمع جد جدى يحكى أن أسقف

نياميتزو التقى فى ذلك العصر ببعض الراهبات وهن يتسكعن فى السوق فى أحد أيام المقدس ، فقال لهن :

ـ ما هذا أيتها الإخوة؟

ـ باركنا أيها الأب الجليل

ـ لماذا لاتقــرن يا أخــواتى ســاكنات فى الدين تفكرن فى خلاصكن ولو فى الأسبوع المقدس على الأقل؟

فأجبن فى خشوع :

ـ آه أيها الأب الجليل ، إنه هذا الصوف الذى يعذبنا ، وليغفر لنا الرب ، ولولاه مـا وطئت أقـدامنا هذا الســوق ، وأنت تعلم أن هذا النسيج الصـوفى هو الذى يأتى بغـذائنا ، وهو عـمل بطىء ولكنه عمل على أية حال وفى الحركة بركة .

وعندئذ تنهـد الأسـقف المسكين ، وكظم غـيظه وصـدره يكاد ينشق ثم ألقى الوزر على الأب نيكيفور وهو يقول :

يا ليت هذا الحوذى ينفق إلى غير رجعة فهو الذى ينقلكن ، ولو ذلك لما بقى أحد لينقلكن من كل صوب إلى السوق!

وعندما علم الأب نيكيفور بذلك اضطربت نفسه فيما يقولون ، وأقسم ألا يتعامل طوال حياته مع رجال الكنيسة ، وذلك لأنه كان لسوء حظه متدينا ، وخشى أن يجلب لنفسه لعنات القساوسة ، وهذا هو السبب فى أنه عدا مسرعا إلى دير فوفيدينيا حيث يقيم الراهب كيفياك فوق جبل آتوس ، وهو الراهب الذى يصبغ لحيته وشعره بالكريز الأسود ، وينضج البيض يوم الجمعة المقدس على

الشمعة تكفيرا عن خطاياه! ومنذ تلك الحادثة اتخذ حوذينا قرارا بتفضيل التعامل مع التجار.

وكان الأب نيكيفور يقول إن التاجر هو وحده الذى يعيش بالمقالب ولايقع فيها! وعندما كان يسأل عن سبب ذلك كان يجيب فى مرح : تلك هى إرادة الله.

وماذا تنتظرون من الأب نيكيفور المرح بطبيعته؟ ومع ذلك فقد أخذت تشوبه بعض الكآبة بسبب تلك الحياة المعلونة ،

فزوجته العجوز لا أدرى ما الذى أصابها ، ولكنها أخذت تتفكك منذ حين! فهى تشكو حينا من هذا الجنب ، وحينا من الجنب الآخر ، تشكو اليوم من الأذن وغدا من الساق ثم من العينين!

وكانت تتنقل بحثا عن الدواء بين امرأة وأخرى ، وتلجأ إلى السحر ، وقد ضاق الأب نيكيفور بذلك وأصبح ضيق الصدر باستمرار ، وعندما كان يقضى فى البيت يومين أو ثلاثة أيام متتالية كان يصبح زمجارا شكسا غضوبا ، حتى إن عجوزه المسكينة كانت تطيب نفسها لرؤيته يرحل.

ومن المؤكد أن الأب نيكيفور قد ولد فى الطريق ، وذلك لأنه كان يصبح رجلا آخر بمجرد أن ينطلق على الطرق الكبيرة ، وكان لايتوقف عن فرقعة سوطه وإطلاق النكات على المسافرين ، وقص الحكايات تلو الحكايات عن الأماكن التى يمر بها.

وذات صباح فى يوم الأربعاء السابق على عيد القيامة كان الأب نيكيفور قد خلع عجلات عربته لكى يشحمها ، وإذا به يلمح الأستاذ

ستيرول من قرية نياموتزو ـ وهو تاجر أصباغ ومراهم ، وبودرة ،وأدهنة ، وأدوات تجميل ، وصبغات للشعر ، وزيت اللوز ، وزهر الكبريت ، والحشيشة المغربية ، وورق أرمينيا ، وغيرها من السموم الصغيرة .

في ذلك العصر لم يكن هناك صيدلي في نياموتزو ، وكان الأستاذ ستيرول يحضر كل مايحتاجه الرهبان والراهبات ، وإذا شئتم الحق كان يزاول أيضا نوعا آخر من التجارة سأكتفي بالتلميح به وعليكم الفهم! وهو نوع أكثر أهمية بكثير من عمل قسيس الاعترافات نفسه ، ولولا الأستاذ ستيرول لأغلقت الأديرة أبوابها!

ـ صباح الخير يا أب نيكيفور

ـ وعليك السلام يا أستاذ ستيرول! أى ريح مواتية قادتك إلى هنا .

أتيت من أجل زوجة ابنى ، إنها تريد الذهاب إلى بياتزا ، كم تطلب لتحملها إليها .

آه . . لابد أنها تحمل معها عددا من الأغطية كما جرت العادة عندكم ، ولكن لابأس فعربتي واسعة وبها مكان ، ولكى لا أساومك يا أستاذ ستيرول أعطنى ستة عشر ليا ـ أى قطعة صغيرة جميلة من الذهب ـ وأنا أحملها لك كالملكة ، وهأنت ترى كيف جددت عجلات عربتي ، بل وشحمتها أيضا بحيث أصبحت تنزلق كقباقيب الانزلاق .

ـ تسعة ليات تكفى يا أب نيكيفور . . وابنى سيقدم لك بعض الكؤوس فى بياترا .

ـ فليكن! على بركة الله يا أستاذ سترول ، وأنا أقبل لأننا فى عز

السوق ، ولربما وجدت زبائن عند العودة ، ولكننى أود أن أعلم فقط متى سنرحل .

ـ على الفور يا أب نيكيفور إذا كنت مستعدا .

ـ طبعا أنا مستعد يا أستاذ سترول ، ولكنى يلزمنى فقط أن أسقى مهارى ، اذهب لتخطر زوجة ابنك وسألحق بك بعد لحظة .

وفى نشاط ومهارة ـ كما اعتاد ـ ملأ العربة بالشوفان وشد فوقها الغطاء وربط فيها المهار وألقى بمعطف فوق كتفيه ، وتناول سوطه ، وهاهو يرحل يا أطفال ، فلم يكد الأستاذ سترول يصل بيته حتى كان الأب نيكيفور قد وصل بعربته .

وخرجت من البيت ملكة زوجة ابنه لكى ترى حوذيها على نحو مايجرى العرف فى الريف ، كانت ملكة مولودة فى بياتزا ، وهاهما خداها متوردان ، ربما لشدة مابكت لفراق حمويها! وكانت تلك أول زيارة لها لنياموتزو ، أو كما يقولون باكورة زيارتها لحمويها ، ولم تكن قد تزوجت استيك ابن الأستاذ سترول إلا منذ أسبوعين ، أو على الأصح لم يكن استيك قد تزوج ملكة لأنه هو الذى ترك بيت أسرته كما تجرى العادة ، وبعد أسبوعين اصطحب ملكة إلى بياتزا لمزاولة أعماله .

أرى أنك قد حافظت على كلمتك يا أب نيكيفور .

باستطاعتك يا أستاذ سترول أن تثق دائما بكلمتى ، ثم إننى لا أعرف شيئا فى المصابيح ، وأفضل أن أبدأ رحلتى فى الصباح الباكر لكى أصل قبل هبوط الليل .

هل ستصل بياتزا عند المساء يا أب نيكيفور؟

ما هذا يا أستاذ سترول ، إننى أرجو أن أصل بفضل الله بعد الغداء مباشرة!

إن ثقتى فيك كاملة يا أب نيكيفور ، وأنت أكثر منى دراية وخبرة بهذه الأمور ، ولكننى مع ذلك ارجوك أن تقود بعناية حتى لاتقلب زوجة ابنى!

آه يا أستاذ سترول! لقد زاولت هذه المهنة لزمن مديد ، وكم نقلت من سيدات وراهبات وبنات أشراف ، وعلية القوم ، وبفضل الله لم يشك فىّ أحد ، وذلك فيما عدا الأخت إيفلامبيا بوابة دير فاراتيك ، التى كان لى معها بعض المضايقات بسبب ما اعتادته من ربط بقرتها فى مؤخرة العربة أينما ذهبت ، وذلك لكى تحصل دائما على اللبن مجانا!

وكان فى هذا مايزعجنى لأن البقرة هى البقرة دائما ، وكانت تلتهم الشوفان من عربتى ، بل لقد كسرت سلم العربة ذات يوم ، كما أنها فى المرتفعات كانت تتخلف فتشد الوثاق حتى كادت أن تخنق مهارى ذات مرة ، وبالجملة «طهقت» منها وتجرأت على أن أقول لها لماذا أيتها الأخت كل هذا الشح بدراهم معدودات مع أنك لست بخيلة فيما يتعلق بالإنفاق الكبير ، رنت إلىّ عندئذ برقة لتقول فى صوت هامس : اسكت أيها الأب نيكيفور! اسكت! لاتغضب من هذه البقرة المسكينة التى لاذنب لها ، فآباء جبل أنتوس المقدس هم الذين أملوا علىّ ـ كقاعدة ـ ألا أشرب إلا من

لبن نفس البقرة ، لكى أظل شابة زمنا طويلا ، ولا حيلة لى فى ذلك فلابد من طاعتهم فى كل شىء ، وذلك لأن فخامتهم يعرفون أكثر مما نعرف نحن الخاطئات ، وعندما علمت ذلك أحسست أن الأخت على شىء من الحق ، وتركتها شأنها ، وعلى أية حال فإنها لم تكن تخلو من العته ، وذلك لأنها لم تكن تريد أن تشرب إلا من نبع واحد ، وأما أنت يا أستاذ ستيرول فأظن أنك تلصق بى بقرة أثناء الرحلة! وأما عن السيدة الصغيرة فأنا متأكد أنها ستنزل عندما نصل إلى مرتفع أو منخفض حاد ، وبخاصة أن المناظر جميلة الآن فى الريف على نحو مذهل ، ولكن كفى ثرثرة! هيا! اصعدى يا سيدتى فسأحملك إلى زوجك العزيز! آه . . هؤلاء السيدات الشابات . . إننى أعرفهن جيدا! فعندما يبعد عنهن الزوج لايقر لهن قرار ، ولايفكرن إلا فى العودة السريعة إلى البيت على نحو مايعدو الحصان إلى الحظيرة .

هيا يا أب نيكيفور! فأنا أصعد إلى العربة ، ثم أخذ الجميع يحملون فى سرعة الأغطية والوسائد الوثيرة وسلة مليئة بالمأكولات وأمتعة أخرى صغيرة ، وأخيرا ودعت ملكة حمويها ثم تربعت على الأغطية فى قلب العربة! وقفز الأب نيكيفور إلى مقعده ، وقرقع بالسوط بينما الأستاذ ستيرول وذووه على عتبة الباب ينظرون إليه وهم يسيرون ووجوههم مبللة بالدموع .

وأثناء عبور المدينة كان الحوذى يعدو عدوا جهنميا ، وكأن لمهاره أجنحة .

وفى غمضة عين عبروا الوادى والقرية وتل هيموجستى كما قطعوا المسافة بين أوشيا وجرومانزستى قفزا .

ـ آه! يا إلهى . . انظرى يا سيدتى الصغيرة إلى هذه القرية الجميلة إنها جرومانزيستى[1] لو كان مثل هذا العدد من العجول فى مرعاى ، وكان لك من الأطفال قدر من مات هنا عبر القرون من وحوش ووثنيين أقذار ، إذن لأحسسنا بمناعة تامة .

ـ ألا ليت اله يهبنى أطفالا يا أب نيكيفور!

ـ وأنا عجول يا ابنتى العزيزة! وذلك لأننى فقدت كل أمل فى إنجاب أطفال ، فعجوزتى عاقر ، ولم تستطيع الملعونة أن تعطينى ولو طفلا واحدا! ألا سحقا لها! فيوم يتحطم غليونى ستذهب عربتى إلى الجحيم ولن تجد مهارى لها سيدا!

ـ لاينبغى أن تحزن يا أب نيكيفور ، فتلك بلاريب إرادة الله ، ولقد سطر فى كتبنا المقدسة أن البعض لم يوهبوا أطفالا إلا فى سن الشيخوخة .

ـ دعينى من كتبك فلى فيها رأيى الخاص ، وإنه لمن العبث أن ترج الماء فى القربة فلن يخرج منه زبدا! ولقد سمعت أنا أيضا عندنا فى الكنيسة من يقول إن الشجرة التى لم تعد تحمل ثمارا يجب أن تستأصل من جذورها وأن ترمى فى النار ، وهذا قول حق! والشىء الذى يدهشنى هو أننى قد صبرت على معاشرة هذه العجوز حتى اليوم ودينكم من هذه الناحية خير من ديننا ، فالمرأة التى لاتنجب أطفالا تأخذون غيرها ، وإذا لم تنجب هذه الأخرى

(١) هى القرية التى ولد فيها إيون كريانجا كاتب هذه القصة .

انتقلتم إلى غيرها ، حتى تتـ هوا إلى واحدة حظيت ببركة الله ، وأما الأمر عندنا فمختلف حيث نلزم بأن نعيش حتى آخر رمق مع امرأة عاجزة ، والأطفال لا أثر لهم ، ومع ذلك فسيدنا المسيح لم يصلب من أجل رجل واحـد فى هذه الدنيـا! أليس كـذلك يا سيدتى الصغيرة؟! أجيبينى إذا استطعت!» .

ـ قد تكون على حق يا أب نيكيفور .

ـ من المؤكد أننى على حق يا سيدتى الصغيرة! هو هو . . أعوذ بالله! أى شـوط قطعناه! لقـد أخـذنا نثـرثر وهانحن قـد وصلنا فجأة! . . آه يا إلهى! إنه كـان يعلم ماذا يفعل عندمـا أعطى كل إنسان رفيقا! هيا . . إلى الأمام يا مهارى العزيزة وهانحن قد وصلنا إلى غابة بروماتزستى مصدر رعب التجار وفزع النبلاء! . . هيه . . هيه . . ياسيـدتى الصغيرة! . . لو كان لهذه الغابة فم يحكى مـا شهدته لسمعت منه حكايات مفزعة لاتكاد تصدقها الآذان!

ـ ولكن ما الذي حدث هنا يا أب نيكيفور؟

ـ آه يا سيدتى الصغيرة إن ماحدث لايمكن وصفه! . . تصورى أن أحدا لم يكن يستطيع أن يمر من هنا دون أن ينهب ويعذب ثم يقتل ، وكان هذا يحدث ليلا أكثر مايحدث نهارا ، وأما عن نفسى ، فقد لاقيت أحيانا ذئابا وحيوانات متوحشة أخرى ، ولكنى كنت أتظاهر بعدم رؤيتها وأتركها تمر فى سكون إلى حال سبيلها .

ـ يا إلهى! . . . لاتحـدثنى يا أب نيكيـفـور عن الذئاب فـأنا أخشاها خشية فظيعة!

لقد قلت لكم إن الأب نيكيفور كان رجلا مهزارا وأنه كان يملك الموهبة التى يقص بها حكايات تجعلك تموت من الضحك أو تهلك من الخوف .

ـ احذرى يا سيدتى الصغيرة فهاهو واحد قادم!

ـ يا ويلى! أين أستطيع أن اختبىء أيها الأب نيكيفور؟

ـ حيث تستطيعين يا سيدتى الصغيرة ، وأما عن نفسى فلست خائفا ولو جاء من الذئاب قطيع بأكمله!

وعندئذ تعلقت ملكة المسكينة في يأس بعنق الأب نيكيفور والتصقت به كالعلقة ، وظلت كذلك بعض الوقت ثم سألته بصوت مرتجف .

أين هو يا أب نيكيفور؟

وأين يمكن أن يكون؟ . . لقد عبر الطريق أمامنا وتوغل فى الغابة ، ولكنك أوشكت أن تخنقينى يا سيدتى الصغيرة ولو أننى أرخيت من يدى الأعنة لكان أمرنا عجبا .

وردت ملكة فورا بنغمة ضارعة :

ـ أيها الأب نيكيفور لاتحدثنى بعد الآن عن الذئب ، وإلا مرضت من الخوف!

ـ لست أنا الذى يحدثك عنه بل هو الذى يأتى . . انظرى . . هاهو يعود .

ـ آه . . يا إلهى!

ثم عادت إلى الاختفاء في جوار الأب نيكيفور

ـ آه . . هذا الشباب! إنك تريدين أن تلعبى . . أليس كذلك يا سيدتى الصغيرة . . وعلى أية حال لقد كان من حظك أن تكونى معى أنا الذى لاتضطرب رأسه ولايخاف الذئب ، ولو كان أحد آخر مكانى . .

ـ ولكن قل يا أب نيكيفور . . إنه لن يعود ثانية؟

ـ يا للعجب! أتريدين ذئبا فى كل لحظة؟

ومع ذلك فهناك واحد خلف كل شجرة ، وهم لايتنزهون قطعانا إلا فى سانت أندريه ، وأما عن الصيادين فهل تصدقين أن قليلا من الذئاب هى التى تقع بين أيديهم فى المطاردات الكبرى؟ هيا . . فنلرح قليلا مهارنا ، فها قد وصلنا إلى تل الدراجون الذى يقولون إنه سقط عنده تنين هائل كان ينفث اللهب من حلقه ، ولم يكن إنسان يجرؤ على أن يمر على هذه الناحية . وعندها ترتعد وترتمى مذعورة بعضها فوق البعض .

ـ يا إلهى! وأين هو ذلك التنين يا أب نيكيفور؟

ـ وكيف أعرف ذلك . . والغابة كبيرة؟ لابد أنه مختبئ فى ناحية ما! ومن الناس من يقول إنه بعد أن التهم العديد من الناس بل وقشر الأشجار ، مات هنا فى هذا المكان ، ومنهم من يقول إنه شرب لبن بقرة سوداء ، ثم ارتفع إلى السماء التى كان قد نزل منها ، ولكن أى القولين نصدقه؟ . . لست أدرى! والناس يتحدثون كيفما اتفق ، وأما أنا فلحسن الحظ لا أخشى التنين أيضا ، وذلك

لأننى أعرف الكثير من الوسائل السحرية ، فأنا أقبض على الأفاعى فى وكرها على نحو ماتتلقين أنت الكتكوت من البيضة .

ـ ولكن أى نوع من الوسائل السحرية تعرف يا أب نيكيفور؟

ـ لاتطلبى منى هذا يا سيدتى الصغيرة فأنا لم أقله حتى لعجوزتى نفسها ، بالرغم من أننا متزوجان منذ أربع وعشرين عاما ، وقد فعلت كل شىء لكى تعرفه حتي صدعت رأسى ، ولكن دون جدوى حتى لأظن أنها ستموت كمدا . . وإلى حيث ألقت! . . وحسنا تفعل ، حتى أستطيع أن ابحث عن «وظووظة» ، وأنعم بالحياة يومين أو ثلاثة ثم أموت راضيا ، ولقد أوشكت روحى أن تزهق من هذه العجوز العفنة التى تطاردنى من المساء إلى الصباح وتتشاجر معى بسبب كل «وظووظة» ، ولا أكاد أفكر فى العودة إلى منزلى والالتقاء بها حتى يصيبنى الصرع وأود لو رحت فى داهية!

ـ هيا . . هيا! اسكت يا أب نيكيفور فأنتم جميعا كذلك أيها الرجال!

ـ هاقد وصلت يا سيدتى الصغيرة إلى نهاية الغابة . . هيا انزلى أثناء صعودنا هذا السفح ، ولو لتليين رجليك ، انظرى إلى هذه الأزهار الجميلة ، التى تنبت على حافة الغابة وتعطر الهواء المحيط بها ، أليس من الخسارة أن تظلى معسكرة فى العربة؟

وقالت ملكة وهي ترتجف :

ـ إننى خائفة من الذئب يا أب نيكيفور

ـ هيا فلنفرغ نهائيا من هذا الذئب! أو ما لديك شىء آخر تحكينه؟!

ـ آه . . بل تقف قليلا حتى أنزل

ـ هيا . . اقفزى بخفة! هيا . . ضعى قدمك فوق السلم . . هوب! هكذا . . وينتهى الأمر! . . وفى رأيى أنك الآن شجاعة وأنا أحب الشجعان كالدجاجات المبللة!

وبينمـا كـانت ملكة تقطف بعض أزهار البـرارى من أجل استيك ، كان الأب نيكيفور ـ بعد أن أوقف الخيل ـ يصلح بعض الهينات فى العربة ، ثم أخذ يصيح بسرعة :

ـ أو ما انتهيت يا سيدتى الصغيرة؟ . . هيا اصعدى ولنرحل على بركة الله فالطريق الآن منحدر باستمرار تقريبا .

وما إن صعدت ملكة حتى سألت : ألسنا متأخرين أيها الأب نيكيفور؟

فأجابها : لقد انتهت الآن أشق مرحلة وعما قريب سأصل بك إلى بيانزا .

ثم فرقع بسوطه وهو يصيح :

إلى الخلف يـا بيـضـاء
إلى الأمـام يـا بيـضـاء
النير يتـدلى من أحـد الجـوانب
هيا! مهرتى سـتعـدو كـثمـانية
لأن جـالتزى على بعـد خطوتين

ولم يكد يقطع مائة متر حتى انكسر محور العجلات فصاح نيكيفور : «يا لله! أما حكاية!»

بينما صاحت ملكة قائلة : «يا إلهى! سيفاجئنا الليل فى الغابة!»

هيا يا سيدتى الصغيرة . . لاتكونى نذير سوء! كم مرت بى أحداث مماثلة فى حياتى ، وبينما تتناولين وجبة خفيفة ومهارى تزدرد قليلا فى الشوفان ، سأكون قد أصلحت المحور .

ولكن الأب نيكيفور عندما بحث عن البلطة لم يجدها فى مكانها .

فقام الأب نيكيفور وقد قطب حاجبيه من شدة الغضبك «آه! لم يبق إلا هذا! ألا سحقا لك أيتها العجوز! أهكذا اهتمامك بى؟! البلطة ليست هنا وهذا واضح!» .

وعندما رأت المسكينة ملكة هذا أخذت تتنهد وقالت : «والآن يا أب نيكيفور ، ما العمل؟» .

هيا يا سيدتى الصغيرة لاتحرقى دمك فنحن لم نفقد كل أمل!

ثم أخرج سكينا قديمة من جرابها وشحذها مرتين أو ثلاث مرات على حجر للشحذ ، وقطع غصنا من شجرة بلوط صغيرة وشط به قدر المستطاع ، ثم أخذ يبحث فى قاع عربته لعله يجد قطعة حبل ، ولكن كيف يجدها إذا كان أحد لم يضعها؟

وعندما تبين أنه لن يجد ، قطع حبائل خرجه ، وطرفا من المقود وجدلهما معا ، ونجح فى أن يربط المحور الذى ارتجله ، ثم وضع العجلة فى مكانها ، وثبت السلم ، وقلب النير وربطه فى مقدم العربة ، فاغرافاه : «هيا يا سيدتى الصغيرة! . . كم تعلمنا الشدائد! . . لاينبغى لأحد أن يخاف وهو صحبة الأب نيكيفور ابن قرية توتوبينى ، والآن اثبتى جيدا فى مكانك فسأقود هذه

المهار بسرعة مجنونة . . ولكن تأكدى أننى سأرى عجوزتى الويل ، بلكماتى الخشنة عندما أعود إلى البيت ، وسوف أدحو عقيصة شعرها لكى أعلمها كيف تهتم بزوجها ، وذلك لأن المرأة إذا لم تضرب تصبح كالطاحونة بغير ماء! هيا! اثبتى فى مكانك يا سيدتى الصغيرة . . شى! شى!» .

وأخذت المهار تعدو بشدة حتى راحت العجلات تقرقع والغبار يتصاعد إلى السماء ، ولكن بعد جولة صغيرة أخذ المحور المرتجل يسخن ويهبط ، ثم . . كراك! وهاهى العجلة تقفز بعيدا عن العربة .

ـ يا للداهية! لابد أننى قد قابلت هذا الصباح قسيسا! أو أى شؤم آخر!

ـ ماذا سنفعل أيها الأب نيكيفور؟

ـ سوف نرى يا سيدتى الصغيرة! وعلى أية حال اطمئنى ولاتفزعى ، ونحن لحسن الحظ لسنا وسط الحقول ، وفى الغابة والحمد لله أخشاب لا حد لها ، ولربما أعارنا عابر سبيل بلطة .

وفى هذه الأثناء لمح مسافرا قادما نحوهما وعلى ظهره خرجه

ـ أسعد الله أوقاتك أيها الصديق! أرجو ألا يكون الطريق قد انقسم ظهره كعربتك .

لامجال لمثل هذا الهذر أيها الصديق فمن الأفضل أن تمد لى يد العون كى أعيد المحور إلى مكانه ، وأنت ترى ما وصلت إليه من إعياء .

ـ لاسبيل إلى ذلك فأنا على عجلة ويجب أن أصل إلى

أوسلوبيتى وليس أمامك إلا أن تقضى الليل فى الغابة ، ولن يصيبك أى ضجر!

فرد نيكيفور غاضبا : «إنه ليدهشنى ألا تستحى من مثل هذا القول! ما الذى يدور برأسك العجوز الخربة؟»

فأجابه الرجل وهو مستمر فى طريق : «لاتغضب يا صديقى ، إنها مجرد دعابة ، وداعا! وليحفظك الله» .

ـ انظرى يا سيدتى الصغيرة كم الناس أشرارا! إن الغنائم وحدها هى التى تغريهم! . . آه لو كان معى زجاجة نبيذ أو عرق بالعربة ، لما ظللت هكذا وسط الطريق! تأكدى من ذلك! هيا! على الأب نيكيفور أن يتصرف هذه المرة أيضا! وسأحاول!

ثم أخذ يشذب غصنا آخر ، وظل يسويه حتى استطاع فى النهاية أن يضعه فى مكانه ، ثم أخذ يفرقع بسوطه من جديد ، وأخذت المهار تعدو حتى اشتبكت العجلة فى حجر وانكسر المحور من جديد .

ـ آه! . . لقد أخذت أعتقد يا سيدتى الصغيرة أننا سنضطر إلى قضاء الليل فى الغابة كما قال ذلك الرجل الذى مر بنا .

ـ يا إلهى! هل هذا ممكن يا أب نيكيفور؟ ما هذا الذى تقوله؟

ـ وماذا تريديننى أن أقول؟ انظرى! هاهى الشمس تغرب خلف التل ، ونحن لانزال هنا ، ولكن لابأس! اطمئنى يا سيدتى الصغيرة فأنا أعرف فى الغابة ساحة مكشوفة على بُعد خطوتين من هنا فلنذهب إليها حيث سنكون كأننا فى بيتنا ، فالمكان مكنون ، والمهار ستستطيع أن ترعى فيه ، وستنامين داخل العربة ،

بينما أقوم أنا بحراستك طوال الليل ، وعلى أية حال ، فليلة واحدة لاتدوم قرنا ، وسترين كيف تمرا وأما عن عجوزتى فسوف تدفع الثمن ، فبسببها حدثت كل هذه المضايقات .

ـ فليكن! افعل ما شئت يا أب نيكيفور ، مادام ما تفعل صالحا .

ـ اطمئنى يا سيدتى الصغيرة إلى أن كل شيء سيكون على خير حال .

وسحب الأب نيكيفور المهار بالمقود ، وقلب العربة ، وجرها بقدر استطاعته إلى الساحة المكشوفة .

ـ انظرى يا سيدتى الصغيرة! جنة الله على أرضه! كم يود الإنسان أن يعيش فيها ولايموت أبدا! آه! إنكم لاتعلمون شيئا عن جمال العالم! انزلى قليلا قبل أن يخيم الظلام! سوف نجمع بعض الخشب الجاف ونضرم النار طوال الليل لكى نطرد الناموس وجميع حشرات العالم .

ولما لم تجد المسكينة ملكة بدا من ذلك نزلت من العربة وأخذت تجمع الأغصان الصغيرة .

آه! ما أجملك فى هذا الوضع يا سيدتى الصغيرة! كأنك من بنات ريفنا! أو لم يفتتح أبوك مثلا حانة فى إحدى القرى؟

ـ نعم ! لقد أدار فندقا لزمن طويل فى قرية بودستى .

ـ آه! لقد كنت اتساءل لماذا تجيدين الحديث بلغة ملدافيا ، ولماذا تلوح عليك سيماء بناتنا ، ولن أصدقك بعد الآن إذا قلت لى إنك تخافين الذئب ، والآن! ما رأيك فى هذه الساحة المكشوفة؟!

لقد كان من الممكن أن تموتى دون أن تعرفى ماهو الجمال! انصتى قليلا إلى هذا الكروان، وكيف يشع مرحا، وهذه العصافير التى تتنافس فى الزقزقة.

- من يدرى ما الذى سيحدث لنا هذه الليلة يا أب نيكيفور! وماذا سيقول إستيك؟

- إستيك؟ . . سيظن أنه يرى الله عندما تعودين!

- ولكن هل تظن أن إستيك يستطيع أن يفهم هذه الأشياء، وكل مايمكن أن يحدث فى السفر؟

- يخيل إلىّ أنه كعجوزنى لايعرف شيئا غير أنه ينتقل من الموقد إلى الفرن، هيا سيدتى الصغيرة لنرى هل تعرفين كيف تشعلين النار.

وأخذت ملكة ترص الأغصان الصغيرة بينما قدح الأب نيكيفور زناده، وأخذ الاثنان يضرمان النار، ثم قال نيكيفور:

- انظرى كيف تقرقع هذه الأغصان يا سيدتى الصغيرة!

- إننى أرى جيدا يا أب نيكيفور، ولكن يجب أن أقول لك إننى غير خائفة.

- ما هذا الذى تقولينه؟ لكأنك من أسرة إستيك! شيئا من الشجاعة! وإذا كنت رعديدة إلى هذا الحد اصعدى إلى العربة ونامى، وسيمر الليل كلحظة، وعما قريب سينزع الفجر.

وشجعت كلمات الأب نيكيفور ملكة فصعدت إلى العربة

وتمددت لتنام ، بينما أشعل نيكيفور غليونه وفرش معطفه على الأرض وتمدد هو أيضا على جنبه إلى جوار النار وأخذ يشد بضعة أنفاس ، وبينما كان النوم يغزوه تطايرت شرارة ووقعت على أنفه .

ـ أعوذ بالله . . إنها بلاريب شرارة من الأحطاب التى جمعتها ملكة . . آه! لقد حرقتنى . . هل تنامين يا سيدتى الصغيرة؟

ـ لقد نمت قليلا يا أب نيكيفور . . ولكن الأحلام أخذت تراودنى ، واستيقظت .

ـ عجيبة! لقد حدث لى نفس الشيء! . . لقد أحرقت شرارة طرف أنفى وطار النوم ، ويخيل إلىّ أننى قد نمت ليلة كاملة! ثم كيف ننام مع هذه الأسراب من الكروان المجنونة ، التى تتفجر فرحا! ولكن ما العمل والآن موسم الحب بالنسبة إليها؟ . .

ـ هل تنامين يا سيدتى الصغيرة؟

ـ كنت على وشك النوم يا أب نيكيفور

ـ اسمعى . . لدى فكرة؛ سأطفئ النار لأننى ذكرت فجأة أن رائحة الدخان يجلب الذئب الملعون .

ـ إذن أطفئها يا أب نيكيفور!

وفورا غطى الأب نيكيفور النار بالتراب وأخمدها .

ـ والآن نامى مطمئنة يا طفلتى العزيزة ، فالنهار سيأتى قريبا . . آه . . يا للغباء . . لقد أطفأت النار ونسيت أن أشعل غليونى ، ولكن لحسن الحظ معى القداحة . . آه! . . هذا الكروان الشقى! إنه لايبخل على الحب بشىء!

وظل الأب نيكيفور ساكنا قليلا من الزمن لينتهى من تدخين غليونه ، ثم نهض فى خفة على أطراف أصابعه واقترب من العربة وكانت ملكة قد أخذت تشخر قليلا ، فهزها الأب نيكيفور وقال لها :

- «يا سيدتى الصغيرة! يا سيدتى الصغيرة . .» فردت ملكة وهى تنتفض خائفة . . ماذا يا أب نيكيفور» .

- لقد خطر لى أن أنتهز فرصة نومك لكى امتطى مهرة وأعدو بها إلى البيت لكى أعود منه بمحور للعجلات وبلطة ، وعند بزوغ النهار سأكون قد عدت .

- يا إلهى! ما هذا الذى تقول يا أب نيكيفور؟ أتريد أن تجدنى عند عودتك ميتة من الخوف؟

- أعوذ بالله! فلتحفظك العناية يا سيدتى الصغيرة! هيا! لاتخافى! . . إن هو إلا خاطر لى .

- كلا يا أب نيكيفورا وعلى أية حال فلن أستطيع النوم ، الآن . . سأنزل وأمكث إلى جوارك طوال الليل!

- أبدا يا سيدتى الصغيرة! ما هذا! . . ابقى حيث أنت مستريحة

- كلا! . . هأنا قادمة!

وهاهى تنزل وتجلس على العشب إلى جوار الأب نيكيفور وظلت هى تقول جملة وهو يقول جملة حتى أخذها النوم ، ونامت نوما عميقا ، وعندما استيقظا كان النهار قد انتشر فى يوم بالغ الصفاء .

- هيا يا سيدتى الصغيرة! . . هاهي شمسنا المقدسة! هيا!

استيقظى! يجب أن نغسل وجهنا ، والآن . . هل أكلوك! . . هل تخلصت من الخوف؟!

وعند سماع هذه الكلمات عادت ملكة إلى النوم ، وأما الأب نيكيفور فقد صعد ـ كرجل مسئول ـ إلى العربة وأخذ يبحث فى الشوفان وإذا به يعثر فى القاع على بلطة وقطعة من حبل ومخرمة!

ـ بالله! هاهى! ومع ذلك فقد اتهمت ظلما عجوزتى المسكينة!

والواقع لقد أدهشنى ألا تهتم بى! والآن لكى أكفر عن اغتيابها سأشترى لها طربوشا أحمر وكوفية فى لون الكركم ترد إليها الشباب! وبينما كنت أنا أسرف فى مداعبة الزجاجة كانت هي المسكينة تعرف ما أنا فى حاجة إليه أثناء الرحلة ، والخطأ الوحيد أنها لم تضع تلك الأشياء فى مكانها ، ولكن كيف للنساء أن يحلقن شئون أزواجهن؟

ـ يا سيدتى الصغيرة! يا سيدتى الصغيرة!

ـ ما الأمر يا أب نيكيفور؟

ـ انصتى قليلا! تصورى . . إننى وجدت كل ماكان يلزمنى : بلطة وحبلا وخرامة؟!

ـ أين وجدتها يا أب نيكيفور؟

ـ آه! تحت أمتعتك!

لم يكن ينقصها إلا صوت تصيح به ، وقد كنت كذلك الشحاذ

الذى يجلس فوق كنز ثم يطلب الصدقة . . وعلى أية حال فمن حسن الحظ أن أجدها ، ومن المؤكد أن عجوزتى المسكينة هى التى وضعتها .

- آه! أنظر يا أب نيكيفور كيف كنت سيئا . . وكيف أثقلت روحك بالخطايا؟

- آه . . نعم يا سيدتى الصغيرة . . هذا حق! لقد أخطأت فيما أفضيت إليك عنها من ألفاظ السوء ، ولم يبق لدى إلا أن أغنى لها أغنية صغيرة للصلح :

يا عجوزتى المسكينة . . إننى أعدك
طيبة كنت أم سيئة
أن احتفظ بك إلى الأبد!

وأخذ الأب نيكيفور يشمر عن ساعديه ويقطع شجرة بلوط صغيرة ليصنع منها محورا للعجلات بالغ الجمال وأعده على خير وجه وأعاد العجلة إلى مكانها وربط المهار فى العربة واستأنف الطريق فى رفق وصاح : الآن اصعدى يا سيدتى الصغيرة وإلى الأمام!» .

ولما كانت المهار قد أكلت جيدا واستراحت فقد وصلوا إلى بياترا عند الظهر .

- هأنت في بيتك يا سيدتى!

- شكرا لله يا أب نيكيفور فلم أكن فى حالة سيئة حتى فى الغابة .

وفيما هما يثرثران وصلا إلى بوابة المعلم إستيك الذى كان عائدا لتوه من الكنيس ، وعندما رأى ملكة لم يتمالك نفسه من الفرح ، وعندما علم ماصادفهما من مغامرات وأخطار لم يعرف كيف يشكر الأب نيكيفور الذى غمره بالهدايا إلى الحد الذى أدهشه .

وفى اليوم التالى رحل مع زبائن آخرين ، وعندما وصل إلى بيته كان فى حالة من المرح أدهشت زوجته التى لم تره فى مثلها منذ سنوات . . وكل أسبوعين أو ثلاثة كانت السيدة ملكة الصغيرة تأتي إلى نياموتزو لزيارة حمويها ، ثم تعود وحدها مع الأب نيكيفور لاغير ، ولم تعد تخاف من الذئب .

وبعد عام وربما أكثر أخذ الأب نيكيفور يدلى باعترافات وهو يعب النبيذ ، فهو يقص على أحد أصدقائه مغامرة غابة دراجون ، وخوف السيدة الصغيرة ملكة ، وصديقه هو الآخر يدلى أيضا باعترافات أمام أصدقاء آخرين ، ومنذ ذلك الحين لم يتوقف الناس - وهم دائما أشرار - عن معاكسة الأب نيكيفور بتسميته «نيكيفور الحلنجى» ، ولصق بالمسكين هذا الاسم ، وبالرغم من أنه قد أصبح منذ زمن طويل ترابا ، فإنهم لايزالون يسمونه «نيكيفور الحلنجى»!

ى.ل. كاراجيالى

١٨٥٢ ـ ١٩١٢

يعتبر كاراجيالى الأديب المسرحى والقصاص ـ الكاتب الواقعى ـ الرومانى الكبير فى القرن التاسع عشر، وبحكم مولده فى أسرة من الممثلين عرف البيئات الحضرية معرفة رائعة وصور حياة وأخلاق سكان المدن على نحو لا يجارى ويعتبر مسرحه «ليلة عاصفة ـ الخطاب المفقود ـ السيد ليونيدا مشتبكا مع الرجعية ـ مشاهد من المرجان ـ كارثة»، ألذع هجاء وأصدقه لأخلاق المجتمع البورجوازى الإقطاعى فى نهاية القرن الماضى، وفى صوره القلمية «الثعلب ـ العدالة ـ صاحب الضيعة الرومانى ـ مكافأة التضحيات الوطنية ـ تمبورا ـ الصديق فلان ـ الساعة الخامسة ـ السيد جوان ـ زيارة ـ سلسلة التهاون ـ استطلاع ـ س .ف .ر . . . الخ» وكذلك فى قصصه وأقاصيصه «نصيبان كبيران ـ شمعة عيد الفصح ـ خطيئة ـ فى زمن الحرب ـ فى فندق منيولا ـ كير إيانيوليا . . الخ»، يضيف كاراجيالى إلى روحه النقدية، مواهبه الكبيرة كقصاص يستلهم الفولكلور أو يستوحى الخوارق، وبحكم طبيعته الجدلية لم يتردد فى أن يشهر سنة ١٩٠٧ فى منشور سياسى سماه: «من الربيع إلى الخريف» بحركة قمع ثورات الفلاحين فى ذلك العام، وتنكرت له سلطات ذلك العهد وشنعت عليه فاعتزل فى برلين فى آخر حياته حيث توفى سنة ١٩١٢ وهو فى الستين من عمره.

ومع ذلك بعث إنتاجه إلى الخلود ، وهو اليوم فى مكان الصدارة فى الأدب الرومانتى ومن أمجاده .

ومن باريس إلى هلسنكى ، ومن لندن إلى سانتياجو ، ومن موسكو إلى القاهرة طافت مسرحية «الخطاب المفقود» أرجاء العالم مؤيدة مكانة كاراجيالى كأحد كبار كتاب المسرح فى عصرنا الحديث .

فى فندق مانيوالا

فى ربع ساعة تصل إلى فندق مانيولا ، ومنه إلى قرية بوتستى العليا من ضواحى بوخارست ، خمسة فراسخ يستطيع الحصان أن يقطعها فى ساعة ونصف إذا سار خببا دون عدو ، وهى رحلة يتحملها الحصان الصغير إذا زود بالشوفان ، ومنح ثلاثة أرباع الساعة راحة فى الفندق ، ومعنى ذلك أن ربع ساعة وثلاثة أرباع ساعة ـ أى ساعة كاملة ـ يجب أن تضاف إلى الساعة والنصف التى تستغرقها الرحلة إلى بوتستى ، فيكون الزمن كله ساعتين ونصف ، ولما كانت الساعة الآن السابعة فإننى فى الساعة العاشرة على أكبر تقدير سأكون عند الحكمدار إيوداكى ، ولقد تأخرت قليلا ، وكان يجب أن أرحل قبل الآن ، ولكن لا بأس فسينتظر على أية حال .

وبينما كانت تراودنى تلك الخواطر رأيت عن بُعد ، وعلى مسافة طلقة نار أضواء كثيرة في فندق مانيوالا ـ وكان هذا لا يزال اسمها ـ بالرغم من أن الرجل قد مات منذ خمس سنوات وأرملته هى التى تدير الفندق .

يا لها من سيدة قادرة ، أرملة مانيوالا ، فلقد قادت الزورق ، وذلك لأن الفندق كان في حياة زوجها على وشك أن يباع .

وأما الآن . . فالديون قد سددت والبناء قد جدد ، وبنيت حظيرة من الحجر ، وجميع الناس يؤكدون أن لديها مالا غير قليل

بعضهم يزعم أنها قد وجدت كنزا ، وآخرون يتهمونها بالسحر ، وفى ذات يوم جاء اللصوص لينهبوا المنزل ، وحاولوا أن يكسروا الباب ، فرفع البلطة أحدهم ـ وكان أقواهم ، شحط فى قوة الثور ـ وأخذ يضرب الباب بكل قواه ولكنه خر على الأرض ورفعوه ميتا ، وحاول أخوه أن يتكلم ولكنه لم يستطيع ، فقد أصبح أبكما! وكانوا أربعة . . ووضع الاثنان الآخران الميت على ظهر أخيه ، وحملا قدميه لكى يدفنوه فى مكان بعيد ، وأثناء خروجهم من الفندق أخذت السيدة مانيوالا تصيح من النافذة قائلة : اللص! وفجأة ظهر ضابط الشرطة ورجاله أمام اللصوص ، وكانوا أربعة من الخيالة الذين تابعوا هؤلاء اللصوص ، وأخذ الشاويش يصيح : «من السائر هناك؟!» وهرب اثنان من اللصوص ولم يبق إلا الأبكم وأخوه الميت على كتفيه ولم يكن التحقيق سهلا فجميع الناس يعلمون أن الرجل لم يكن أبكما ، وقد ظنوا أنه يتصنع البكم ، فأخذوا يضربونه لكى يسترد صوته ، ولكن عبثا ، ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على أن يفكر فى سرقة الفندق .

ولم أكد أحرك كل هذه الذكريات فى نفسى حت كنت قد وصلت حيث رأيت فى فناء الفندق عددا كبيرا من العربات الواقفة ، بعضها محمل بألواح الخشب التى ستنحدر بها فى السهل ، وبعضها الآخر محمل بأكياس الذرة التى صعدت بها من الوادى ، وكنا فى إحدى أمسيات الخريف والهواء منعش ، وسائقو العربات يتدفأون إلى جوار النار ، تلك النار التى لمحتها عن بعد ، وقاد سائس حصانى إلى الحظيرة لكى يعطيه حقه من الشوفان ،

ودخلت الفندق حيث كان جمع كثير من الناس يشربون ويغنون ، بينما جلس اثنان من الغجر وسنانين فى ركن ، أحدهما يغمز قيثارته والآخر جيتاره على طريقة مقاطعة أولتينا ، وكنت جائعا ومقرورا ، وقد نفذت الرطوبة إلى عظامى .

فسألت خادم المقصف : «أين المديرة؟»

عند الفرن

لابد أنها أكثر دفئا هناك

وعبرت ممرا تاركا ردهة الفندق لكى أذهب إلى المطبخ ، وكان مطبخا بالغ النظافة ، ووسط عطن المعاطف المصنوعة من جلود الغنم والأحذية الخشبية ، والأخفاف الجلدية المبللة ، كانت تتصاعد مشهية رائحة الخبز الساخن .

وكانت السيدة مانيوالا تشرف على الفرن

إننى مسرور بأن أجدك فى صحة طيبة يا مدام مرجيولا

على الرحب والسعة يا سيد فانيكا

- هل هناك فى هذه الساعة شيء أن اتبلغ به؟

- حتى فى منتصف الليل . . بالنسبة لمثلك من خيار الناس!

وفى سرعة أمرت السيدة مارجيولا خادمة عجوز بأن تعد المائدة فى حجرتها . . ثم اقتربت من طاقة إلى جوار الموقد وقالت لى : - هيا! اختر لنفسك!

وكانت السيدة مرجيولا جميلة قوية البنية ، واسعة العينين ، وكنت أعرفها منذ طفولتى ، ومنذ أن كان المرحوم والدى والذى لايزال حيا ، حيث مررنا عدة مرات بفندق مانيوالا الذى يقع فى

طريقنا عندما نذهب إلى السوق ، ولكنها ـ ومنذ أن عرفتها ـ لم تبد لى ساحرة إلى هذا الحد ، وكنت شابا ، وفتى وسيما مغامرا ، بل وأقدر على المغامرة منى على التلطف ، وبينما كانت منحنية على الموقعد اقتربت منها من الناحية اليسرى وطوقت خصرها ، ومست يدى ذراعها الأيمن الذى كان لحمه مكتنزا كالمرمر ، وقرصتها وكأننى مدفوع بالشيطان!

ونظرت إلىّ السيدة شذرا قائلة : أليس لديك ماهو خير من هذا لتفعله؟

ـ إن عينيك رائعتان يا مدام مرجيولا!

ـ هيا! لاداعى للمجاملات! قل لى أولا ماذا تريد أن أقدم لك؟!

ـ قدمى لى . . قدمى لى . . ما عندك!

ـ حسن . . حسن!

وأخذت أكرر متنهدا . . آه! حقا إن عينيك رائعتان يا مدام مرجيولا!

ـ ماذا يمكن أن يقول حموك لو سمعك!

ـ أى حمى؟ . . وكيف تعرفين؟

ـ أتظن أنك إذا أختفيت تحت قلنسوة الفراء لن يرى أحد ماذا تفعل ، أو لست ذاهبا إلى الحكمدار يورداكى لكى تخطب ابنته الكبرى؟ . . هيا لاجدوى من أن تنظر إلىّ هكذا ، اجلس على المائدة فى حجرتى!

وكنت قد رأيت فى حياتى حجرات نظيفة ومريحة ، ولكننى في الحق لم أثر مثل هذه الحجرة . . أى فراش! وأية ستائرا وأية

جدران! وأى سقف! . . كلها بيضاء كاللبن! ومصباح المائدة وجميع المفارش مطرزة برسوم متباينة ، وكانت دافئة ، فى دفء الجو الذى تهيئه الدجاجة تحت جناحيها لصغارها . . ثم رائحة التفاح والكمثرى البرية!

وعندما هممت بالجلوس إلى المائدة أخذت ـ مجارة للعادة التى ألفتها منذ الطفولة ـ أدور باحثا عن جهة الشرق لكى أرسم علامة الصليب ، وفحصت الجدران من جولى فى بعناية الواحد بعد الآخر ، ولكنى لم أجد الإيقونة ، وعندئذ قالت مدام مرجيولا ، ما الذي تبحث عنه وأجبت : الإيقونات . . أين هي؟

فقالت : سحقا للإيقونات! إنها أوكار للبق والصراصير!

كم هى نظيفة! . . وجلست على المائدة ورسمت علامة الصليب كالعادة ، وفجأة انطلقت صرخة نافذة ، لاشك أننى قد وضعت كعب حذائى الحديدى على قط عجوز كان قابعا تحت المائدة! وقفزت مدام مرجيولا وفتحت الباب فانطلق القط الهائج إلى الخارج ، بينما اندفع الهواء البارد إلى الحجرة وأطفأ المصباح ، وأخذنا نبحث عن أعواد الثقاب ، وتتحسس مكانها ، وبحثت أنا هنا ، وبحثت هى هناك والتقينا فى الظلام صدرا أمام صدر ، وبطبيعتى المغامرة أمسكتها بقوة بين ذراعى وأخذت أقبلها ، ومع أن المرأة أخذت تقاوم ـ إلا أنها بدت مستسلة أحيانا وكانت وجنتاها كالنار وشفتاها رطبتين ، وإلى جوار أذنها كان يقف زغب جلدها .

وأخيرا وصلت الخادمة حاملة شمعة وصينية عليها الطعام ، وكنا بلاريب قد قطعنا وقتا طويلا في البحث عن أعواد الثقاب

لأن زجاجة المصباح كانت قد بردت تماما! وأشعلنا المصباح ، يا لها من وجبة خبز ساخن ، وبط محمر مع الكرنب ، وسجق مشوى من لحم الخنزير ونبيذ معتق وقهوة تركى ، وضحك وثرثرة . . يا لها من امرأة مدهشة مدام مرجيولا! وبعد القهوة قالت للخادمة العجوز : إحملى إلينا قنينة من نبيذ الموسكا .

يا له من نبيذ رائع! . . لقد أخذت أحس بمفاصلى تنخدر ، وكان الفراش إلى جوارى فتمددت قليلا لكى أدخن سيجارة وأنا أرتشف من كأسى القطرات الأخيرة ذات اللون العنبرى ، ومن خلال دخان الطبقا أخذت أنظر إلى مدام مارجيولا وهى جالسة على مقعد فى مواجهتى تلف لى السيجار ، وقلت لها : حقا يا مدام مرجيولا إن عينيك رائعتان . . ولكنى أريد . .

ماذا؟

قهوة أخرى إذا كان ذلك لايضايقك ، ولكن أقل سكرا هذه المرة!

وأخذنا نضحك ، وحملت الخدمة القهوة وقالت : يا سيدتى . . إنك هنا تتحدثين ولاتعرفين ماذا يحدث فى الخارج!

ماذا هناك؟

لقد أخذت الرياح تهب وستدمر كل شىء!

وفى غمضة عين وقفت ونظرت فى الساعة فإذا بها العاشرة وثلاثة أرباع ، وهكذا بدلا من أن أمكث نصف ساعة فى الفندق مكثت ساعتين ونصف ، وهذا مايحدث عندما نأخذ فى الثرثرة .

ـ فليحضروا لى حصانى!

ـ من؟ . . لقد نام السواس!
ـ إذن أذهب بنفسى إلى الحظيرة؟
وقالت مدام مارجيولا وقد انفجرت ضاحكة ووقفت بينى وبين الباب : لقد سحرتك أسرة الحكمدار!
وفى رفق نحيتها عن طريقى ووصلت إلى الشرفة ، وكان الجو مريعا حقا ، فالنيران التى أشعلها سائقو العربات قد انطفأت ، والحيوانات والناس قد ناموا فوق أكوام سيقان الذرة ، وقد انكمش بعضهم إلى جوار بعض على الأرض بينما أخذت الرياح تنبح هائجة فى الفضاء .
وصاحت مدام مرجيولا وهى ترتعد وقد أمسكت بيدى بقوة : «إن العاصفة فى هياج ، ولست مجنونا لكى ترحل فى مثل هذا الجو ! اقض الليلة هنا وسافر غدا فى وضح النهار؟»
ـ هذا مستحيل!
وانتزعت يدى من يدها واتجهت نحو الحظيرة حيث أيقظت سائسا بعد عناء ، وأخرجت حصانى ، وبعد أن لسعته بالسوط قدته حتى المدخل وصعدت إلى الحجرة لكى أودع مضيفتى ، فوجدتها جالسة فوق الفراش غارقة فى أفكارها ، وقد أمسكت بين يديها بقلنسوتى تقلبها بلا انقطاع .
وطلبت منها الحساب ، فأجابت : وقد ركزت نظراتها فى قاع قلنسوتى : ستدفع عند عودتك!
ثم نهضت وقدمتها إلىّ فأخذتها ووضعتها على رأسى منحرفة قليلا ، ونظرت إلى المرآة فى عينيها التى كانت تلمع بشكل غريب ، وقلت لها :

- إننى أقبل عينيك يا مدام مرجيولا!

- سفر سعيد!

وقفزت فوق السرج وفتحت لى الخادمة باب الساحة وخرجت ، وارتكزت بيدي اليسرى فوق عجز الحصان ، والتفت إلى الخلف ، ومن خلف السياج العالى لمحت باب الغرفة مفتوحا على مصراعيه وفى فجوته شبح المرأة الأبيض وقد قوست يديها فوق حاجبيها .

وتركت حصانى يسير الهوينى بينما أخذت أهمس بأغنية حب ، حتى إذا أخذت أدور حول السياج لأواصل طريقى ، أخذت اللوحة تختفى عن ناظرى ، فصحت : هيا! فلنواصل السير! ورسمت علامة الصليب ، وعندئذ سمعت الباب يقرقع ، والقط يموء ، ولا ريب أن مضيفتى قد قدرت أننى لم أعد أراها ، فدخلت بسرعة إلى الدفء ، وحشرت القط خلف الباب ، القط الملعون الذى يحوم دائما حول الناس!

وكنت بلا ريب قد قطعت شوطا من الطريق ، وكانت الرياح التي تزداد عنفا تهزنى فوق السرج ، وفى السماء كانت السحب تتلو السحب وكلها سوداء ، وكأنها تفر من غضب السماء ، وبعضها منخفض يطير نحو السهل ، والبعض الآخر الأكثر ارتفاعا يتجه نحو التلال والستار الذى تنشره كثيفا حينا وخفيفا حينا يحجب - لزمن طويل - الشعاع الضعيف الذى يرسله الهلال ، وكان البرد والرطوبة يخترقانى فأحس ببطن ساقى وذراعى وهى تتجمد ، ومن كثرة إحناء رأسى لكى أقاوم الريح التى تعوق تنفسى ، أخذت أحس بالام فى رقبتى وجبهتى وصدغى ، بينما

أخـذت أذناى الملتـهـبتـان تطنان ، وظننت أننى قـد أسرفت فى الشـراب ، وأسـدلت قلنسوتى فوق رقبتى ورفعت جبـهـتى إلى السـمـاء ، غـيـر أن زمـجـرة السـحب أخـذت تنزل بى الدمـار ، وأحسست بالتهاب تحت الضلوع من الناحية اليسرى ، وأخذت أنشق فى عمق الهواء المثلوج . . ولكن بصيصا من ألم ملح أخذ يشق صدرى وخفضت ذقنى ، ولما كانت القلنسوة تشد على رأسى كجراب من حديد ، فقد خلعتها ووضعتها فوق سهم السرج ، وأحسست بالمرض لقد أخطأت بالرحيل! لابد أن بيت الحكمدار يورداكى نائم كله ، ولابد أنهم بعـد طول انتظار قـد قـدروا أننى لست مجنونا لكى أسافر فى مثل هذا الجو ، وأخذت أدفع الحصان الذى كان هو الآخر يترنح وكأنه قد شرب مثلى .

وأخذت الريح تهدأ ويخف الاكفهرار مؤذنا بالمطر ، وساد صحو رمادى ، ومن خلال السحب أخذ يقطر رذاذ دقيق نافذ ، فأعدت لبس قلنسـوتى ، وفـجـأة أخـذ الدم يحـرق من جـديد جـدار جـمـجـمتى ، وأمـا الحـصـان فـقـد أخذ يلهث منهكا وقد أضنته الرياح ، فأخذت استحثه بكعبى وألسعه بالسوط ، فخف إلى الأمام بضع خطوات سريعة ثم استعصى ووقف تماما ، وكأنه قد اصطدم بحاجز غير متوقع ، ونظرت فلمحت فعلا على بضع خطوات أمام الحصان شبحا يقفز ويثب . . أهو حيوان؟! ولكنه أى حيـوان؟ حيـوان و= شى؟ . . ربما! لكن لا . . إنه بالغ الصغـر . . وأمسكت بمسدسى وسمعت عندئذ فى وضوح مأمأة معزاة صغيرة ، ودفعت الحصان قدر استطاعتى ، ولكنه استدار ليعود ،

واستعصى ورفض المسير ، فالمعزاة لاتزال هناك! وحملت الحصان على العودة ولسعت جانبيه بالسوط ، وشددت على المقود فتقدم بضع خطوات ، ولكن المعزاة لاتزال هناك! وكانت السحب قد تبددت تماما تقريبا ، فأصبحت أري في وضوح ، وإذا بها معزاة صغيرة سوداء ، تغدو وتروح وتضرب الأرض بحوافرها ثم تنتصب فوق رجليها الخلفيتين وتقفز إلى الأمام وذقنها ملتصقا بصدرها؟ وجبهتها مرتفعة فى هيئة الاستعداد للنطاح ، وأخذت تقفز قفزات عجيبة وتثغو وتأتى بأغرب الحركات ، فنزلت على الحصان الذى رفض أن يستمر فى السير ، وأمسكت بالمقود بالقرب من رأسه وانحنيت قائلا : «بسى! بسى!» ، وبحركة من يدى دعوت المعزاة وكأننى أقدم لها شيئا من الردة فاقتربت المعزاة دون أن تتوقف عن الوثب ، فاستعصى الحصان مفزعا وشد المقود لكى يتخلص من قبضة يدى ، وسقطت على ركبتى ، ولكنى لم أفلت المقود من يدى ، واقتربت المعزاة من يدى ، فإذا بها جدى أسود لطيف جدا استطعت بسهولة أن أحمله لأنه أليف ، ووضعت فى الناحية اليمنى من الخرج فوق بعض الثياب ، وعندئذ أخذ الحصان يهتز وترتعش جميع أوصاله ، وكأنما أخذته حمى الموت ، وامتطيته فاندفع أمامه ذاهلا .

ولمدة طويلة ظل يندفع كالسهم قافزا فوق الحفر ومتخطيا الموانع وجذور الشجر دون أن أستطيع إيقافه ، أو تعرف الأماكن أو تبين الجهة التى يحملنى إليها ، وخلال هذا الشوط السحيق الذى خاطرت أثناءه فى كل لحظة بكسر رقبتى ، وجسمي مثلوج ورأسى تحترق ، أخذت

أفكر فى الفراش الوثير الذى أعرضت عنه فى حمق . . لماذا؟ إن مدام مرجيولا كانت ستتخلى لى عن حجرتها ، وإلا لما رجتنى أن أبقى ، وأخذ الجدى يتحرك فى الخرج لكى يهيىء لنفسه مكانا أفضل ، وأخذت أنظر إليه ورأسه الذكية تطل من الخرج وهو الآخر ينظر إلى أيضا نظرة حكيمة ، وتذكرت عندئذ عيونا أخرى ، وأدركت مدى حمقى ، واصطدم الحصان فأرغمته على الوقوف ، وأراد أن يستأنف السير ، ولكنه من شدة التعب خر على ركبتيه ، وفجأة برقشت السحب وانفرجت قليلا عن الهلال الذى أنزلت بى رؤيته الدوار ، فكأننى قد تلقيت على جبهتى ضربة هراوة ، وقد كان أمامى ، وكأن بالسماء هلالين ، فقد كنت متجها نحو التلال ، ومن الواجب أن يكون الهلال خلفى ، وأدرت رأسى بسرعة لكى أرى القمر ، القمر الحقيقى . . لقد ظللت الطريق فأنا أنزل نحو السهل ، أين أنا؟ ونظرت أمامى فرأيت حقلا من الذرة لم تقطع بعد عيدانه ، ومن خلفى رأيت حقولا واسعة ، فرسمت علامة الصليب مهتاجا ، وبساقى المخدرتين غمزت جنبى الحصان لكى أحمله على النهوض ، وعندئذ أحسست على طول ساقى اليمنى هزة قوية . . وانطلقت صيحة ، لابد أننى قد دست الجدى ، وفى سرعة تحسست الخرج فوجدته خاليا ، لقد فقدت الجدى فى الطريق ، ونهض الحصان وهز رأسه ، واسترد وعيه ، واستعصى ، ثم جمح فألقانى على الأرض ، وكأنما لدغته ذبابة شريرة ، فانطلق يعدو فى الحقول حتى اختفى فى الظلام ، وأفقت ونهضت مترنحا فسمعت حفيف أعواد الذرة وصوت رجل قريب يصيح : «بسى! بسى! يابن الحرام اذهب إلى جهنم» .

فصحت : من هنا؟

- رجل طيب!

- من أنت؟

- جورجى!

- أى جورجى؟

- نطروز . . جورجي نطروز الذى يحرس حقل الذرة .

- هل لك أن تدنو قريبا من هنا؟

- نعم . . نعم . . أنا قادم

وأخذ شبح الرجل يظهر بين أعواد الذرة

قل لى أيها الصديق . . أين نحن هنا؟ لقد ظللت الطريق بسبب العاصفة .

- إلى أين تريد أن تذهب .

- إلى بوبستى العليا

آه . . نعم . . أنا أعرف . . تريد أن تذهب إلى بيت الحكمدار يورداكى .

نعم

- فى هذه الحالة لم تضل الطريق ، وإن يكن أمامك بعد شوط طويل لتصل إلى بوبستى فأنت لاتزال عندها كولستى .

فأجبت فى مرح : إذا كنت عند هاكولستى فأنا إذن لست بعيدا عن فندق مانيوالا .

إنه إلى جوارنا . . فنحن الآن خلف الحظيرة .

أرنى الطريق لو سمحت فلست أريد أن أكسر عنقى الآن .

كنت قد ضللت أربع ساعات تقريبا ، وببضع خطوات وصلت إلى

مدخل الفندق ، وكانت حجرة مدام مرجيولا مضاءة ، وأشباح تنعكس صورها على الستائر ، لعل مسافرا أكثر فطنة منى قد اقتنص فرصة النوم على هذا الفراش البالغ النظافة ، ومن الراجحة أن اضطر إلى الاكتفاء بأريكة بالقرب من الفرن ، ولكن الحظ ابتسم لى ، فلم أكد أدق الباب حتى سمع دقى ، فأسرعت الخادم العجوز إلى فتح الباب ، وما أن عبرت المدخل حتى أحسست قدماى بشيء طرى وإذا به الجدى ، نفس الجدى فهو جدى مضيفتى ، وقد دخل هو الآخر إلى الغرفة ، وفى تعقل نام تحت الفراش .

شيء غريب! . . هل توقعت المرأة أننى ساعود؟ . . أم أنها نهضت مبكرة؟ فالفراش مسوى كما كان .

وكل ما استطعت قوله هو : مدام مرجيولا!

وأردت أن أشكر الله على نجاة حياتى فرفعت يدى اليمنى إلى جبهتى ، ولكنها أمسكت فى سرعة بذراعى وأنزلته واحتضنتنى بقوة .

ويخيل إلىّ أنى مازلت أرى تلك الحجرة ، أى فراش! . . أية ستائر صغيرة! . . أية جدران! . . أي سقف! . كلها بيضاء كاللبن! ومصباح المائدة ، وكل هذه المفارش المطرزة برسوم متباينة كانت دافئة فى دفء الجو الذى تهيئه الدجاجة لصغارها تحت جناحها ، ثم رائحة التفاح والكمثرى البرية!

وكنت سأستمر مقيما فى فندق مانيوالا لزمن طويل آخر لولا أن حماى الحكمدار يورداكى ـ قبض الله روحه ـ أتى صاخبا وانتزعنى منه ، ولقد هربت من بيته ثلاث مرات قبل الخطبة لأعود إلى الفندق ، حتى كان يوم قبض علىّ فيه هذا العجوز ، الذى أراد زوجا

لابنتـه بأى ثمن ، وكـان القـبض بواسطة أعـوانه مكبل الأيدي والأرجل! وقادونى إلى دير فى الجبل حيث قضيت أربعين يوما فى الصوم والتسبيح وحضور القداس ، وخرجت منه بعد التكفير لكى أخطب وأتزوج ، وبعد ذلك بوقت طويل بينما كنت جالسا فى ليلة شتاء صافية ، أنا وحماى على نحو مايحدث كثيرا بالريف ، وأمامنا زجاجة نبيذ ، دخل حارس المزرعة قادما من المدينة حيث كان يقوم ببعض المشتريات ، وأخبرنا أن حريقا فظيعا قد هدم عند الفجر قرية هاكولستى ، وأن فندق مانيوالا قد احترق من أعلاه إلى أسفله ، ودفن تحت كومة من الفحم المحترق جثة مدام مرجيولا المسكينة .

وقال حماى ضاحكا : وأخيرا التهمت النيران تلك الساحرة!

ورجانى حماى أن أقص عليه مرة أخرى وبعد مرات عديدة سابقة هذه الحكاية التى سمعتوها ، والحكمدار يقسم أن المرأة كانت قد وضعت فى قلونسوتى عملا مسحورا وأن الجدى والقط كانات شيئا واحدا!

فقلت : كيف ذلك؟

فأجاب : صدقنى . . لقد كانت الشيطان نفسه!

وأجبت : ربما . . ولكنى إذا كان الأمر كذلك فيبدو أن الشيطان قد يريد لك الخير أحيانا!

ـ إنه يبدأ بذلك لكى يخدعك ثم يقودك بعد ذلك إلى الهاوية التى يلقى بك فيها .

ـ ولكن ماذا تعرف أنت عن ذلك!

ـ فأجاب العجوز : ليس هذا من شأنك! إن له قصة أخرى!

باربى ديلا فرانسيا

١٨٥٢ - ١٩١٨

ينحدر ديلا فرانسيا من أسرة ريفية من البرجوازية الصغيرة ولذلك احتفظ دائما بالحنين إلى الحياة الريفية يواجه به ماتثيره فى نفسه ضجة العاصمة من مضاضة ، وبالرغم من أنه كان محاميا وخطيبا كبيرا ونائبا فى البرلمان ووزيرا ، إلا أنه يدين بشهرته لعمله الأدبى فقصصه وحكاياته التى ابتدأها فى سنة ١٨٨٣ بقصة «سلطانيكا» تبعث الحياة فى القرية الرومانية بكل مافيها من شعر وصراعات درامية ، وأما عندما يصور أخلاق المدينة فإنه يستهدف الكشف عما فيها من فساد ورذائل على نحو مافعل فى قصص «لانكومورروا» و«الطفيليون» و«السيد موكيا» و«الحاج تودوز» و«اليوم السابق على الانتخاب» . . الخ ، وأحيانا يتحول ديلا فرانسيا إلى شاعر مرهف فى حكاية الذكريات على نحو مافعل عندما قص فى رشاقة وعاطفية ذكريات طفولته فى «الجد» و«الجدة» .

وإذا كان نشاطه العام والسياسى قد استغرقه ، فإنه قد عاد إلى الأدب حوالى سنة ١٩٠٩ لكى يقدم إليه «أغنية البجع» والثلاثية المسرحية «الغروب» و«العاصفة» و«إبريون» وهى مسرحيات تاريخية استوحاها من أحداث حكم إيتيين الكبير وخلفائه ، وهذه الثلاثية لاتزال تعتبر من روائع الأدب الدرامى الرومانى .

الحاج تودوز

ـ١ـ

عندما تعبر حى الصليب الحجرى تجد نفسك فى شارع فيتان حيث تنهض على يساره كنيسة سانت ترينيتيه ، وهى كنيسة بالغة الجمال من الداخل ومن الخارج على السواء ، ولا يمكن أن تتمتع بمثل هذا الجمال إلا فى الكنائس القديمة ، وعندما تلقى السمع إلى مايقوله القسس ، وبخاصة المتقدمون منهم فى السن ، وعندما ينزل بك الدوار مما يقولون من عبارات الإعجاب وهم يزعمون أن أصابع أيديهم لاتكفى لكىْ يعدوا العجائب التى يزخر بها هذا المكان المقدس ، وعندما يتوه عجائز «السانت ترينيتيه» ـ فى حسابهم ـ يحتدم بهم الغضب بل ويعضون أصابعهم من الغيظ ، وذلك لأنهم يستخدمون طريقة خاصة فى عد عجائب كنيستهم ، إذ يبدأون برفع أيديهم إلى مستوى عيونهم ، ثم يضعون أصابعهم المنفرجة تحت أنفك ، ويقولون عند كل عبارة إعجاب «وهذه واحدة» ، ويبلون أصبعا فى فمهم ، وعندما تحتدم المناقشة ينسون أنها أصابعهم فيعضونها ، ثم تتحول المناقشة إلى مشاحنة والمشاحنة إلى شجار ، والشجار إلى قطيعة! وكيف يستطيعون أن يتفقوا وكل منهم يذكر ويمتدح ما يروقه هو لا مايروق الآخرين؟

وإذا لم تكن من أبناء المدينة تشممك ـ ككلاب الصيد ـ ثلاثة أو أربعة شيوخ ممن يقضون وقتهم فى الاستماع إلى غناء تلاميذ

معلم المدرسة الشهير تيكوتزا ، فاغرى الأفواه ، وقلنسواتهم على قفاهم ، وما إن يحسوا بأنك غريب وأنك لم تزر كنيستهم ، حتى يأخذوا فى فرك أيديهم ويأخذوا فى السعال لتسليك أصواتهم ، وفى غير عجلة وبخطى وقورة يتقدمون إلى لقائك ، ويستقبلونك جميعا بنفس الألفاظ فى نغمة مطوطة ، والرأس محنية إلى الخلف : «إنك لست من هنا أيها الشاب . . أليس كذلك؟ . . لعلك أتيت فى مهمة سارة؟ ولعلك تبقى فى حينا طويلا؟ لاشك أنك أتيت لبعض الأعمال؟ ولكن ما رأيك فى كنيستنا؟ . . نعم . . قل رأيك بإخلاص فلن يقطع أحد رأسك» .

وإذا ساقك الحظ السيء إلى الإدلاء بملاحظات عن تماثيل القديسين الهيكلية المتصلة ، وبعضها يحمل الرمح والبعض الحربة ، ويمتطى البعض الحصان بينما يقف البعض الآخر على قدميه وقد ربع ذراعيه على صدره حتى برزت الأيدى على جانبى الصدر - لرأيت العجائز وقد رفعوا ذيول قفاطينهم ليدسوها تحت أحزمتهم الحمراء ويقطعون عليك الحديث الذى ابتدأ يجرى على لسانك قائلين : «نعم أيها الشاب . . يوجد فى العالم مصورون كبار للإيقونات ، ولقد رأينا نحن أيضا أمثالهم ، ولكننا رأيناهم أيضا يجنحون نحو الوثنية فيصورون القديسين بعيون كعيون البشر وأيد وأقدام كأيدينا وأقدامنا ، بينما القديسيون الحقيقيون هم هؤلاء الذين ألفنا رؤيتهم منذ نعومة أظفارنا ، وأما أنتم يا شباب اليوم فإنكم تسخرون من التقاليد ومن الكتب المقدسة ، بل ومن القديسين أيضا .

-٢-

ذلك كان رأيهم فيّ ، ولن تنساهم قط ، وسأذكر خاصة عينى ناظر أملاك الكنيسة الجعدتين وهو يشرح لى لوحات الحوائط ويضغط بسبابته على صور القديسين ، ويصعد التنهدات الكبيرة وكأنه يريد أن يبكى على العصور التى خلت وعلى إيمان الماضى .

كانوا أربعة : ثلاثة منهم كانوا يرتدون معاطف طويلة وقلنسوات ذات ظلال مصقولة ، ولكن كابيه ومجعدة ، وأما الآخر الذى كان يسمونه الحاج المعلم فكان يرتدى معطفا قصيرا من قماش أصفر ناصل ملوث بالزيت ، ومبرقش ببقع من الشمع .

أما ناظر الأملاك فلم يتوقف عن الحديث بينما كان الثلاثة الأخر يسخرون منى وكأنهم يقولون : ماذا تنتظر لكى تعترف بهزيمتك! إن أحدا لايستطيع أن يقاوم ناظرنا الذى كم رأى من أصناف الناس وكم مرت به من أحداث!

وقال هذا الأخير مهتاجا : «ماذا تريد أكثر من ذلك؟ أو مايروقك هذا القديس بطرس؟ ومنظره الشجاع فوق حصان؟ وكيف يقتل هذا التنين الملعون وكأنه لايبذل مجهودا أكثر مما يبذل فى سحق دوده؟ وهاهو الشهيد مينا الذى يهزأ من الماكر الشرير ، وانظر إلى نيقولا الأسقف القديس وهامته المرفوعة فى تبل!

ألا ما أجمل وجه هذا الشيخ وأصفاه! آه يا بنى! ستعيش بلا ريب زمنا آخر طويلا ، ولكن لن تتاح لك كثيرا فرصة رؤية مثل

هذه الروائع! وأما ما تراه اليوم فالحرس الوطنى بريش الدجاج المغموس فى اللون الأحمر ، وتن تن تن . . إلى اليمين . . إلى اليسار . . انتباه . . مكانك سر! وأما الأماكن المقدسة . . يا للخجل!»

وكان الناظر تلهث أنفاسه ووجهه محتقن ، فاستسلمت إلى الصمت ، والآن هاهو دهليز الكنيسة ، وهاهى الشياطين التى تبلغ أظافرها ثلاثة أضعاف أصابعها طولا ، والرجال ذوو الشعر الأشعث ، والملائكة النحاف الطوال ، وفوق الجميع الرب نفسه وسط السحب محاطا بقوس قزح .

ولم يعد الناظر يسيطر على نفسه ، ووضع يديه فارتدت أكمامه حتى كتفيه واستأنف بصوت حاد «انظر كيف تتشبث الشياطين بكفة الميزان التى وضع فيها الأتقياء ، ولكن عبثا لأن هذه الكفة سترتفع دائما إلى أعلى ، فالعمل الطيب يستطيع أن يرجح شيطانين بل أكثر ، وأنت تدرك أن هولاء ـ وأشار بأصبعه إلى صف من الرجال العراة البيض كالجليد الذين اتخذوا سبيلهم نحو الجنة ـ إن هؤلاء كانوا من الطيبين المحسنين الذين لم يطمعوا فى مال غيرهم ولم يتمردوا ولم يسرقوا ولم يتفوهوا عبثا باسم الرب ولم يشدوا وثاقا غليظا على كيس نقودهم لكى يحكموا تاجه كما يحدث اليوم!»

وخفض الحاج رأسه وجمع ذيل معطفه بينما ابتسم الآخران من جديد وكأن ابتسامتهما الماكرة تريد أن تقول هذه المرة أيضا : إن

ناظرنا يجيد الحديث! هيا! . . استسلم! لاتحاول أن تقاومه! إذا كنت لاتريد أن تسحق ترابا!

واسترسل الناظر يقول : «وهاهم الأغنياء الأشرار الذين سيشوون في نار جهنم ، وأكياسهم على أكتفاهم ، وقد ناؤوا تحت ثقل ذهبهم وفضتهم .

وسعل الحاج وشد ظلة قلنسوته فوق عينيه وأدار ظهره إلى لوحة يوم الحساب وهو يصيح مهددا بقبضة يده الأغنياء الأشرار السائرين في سكون إلى الجحيم : «اجمعوا كنوزا في السماء! . . اجمعوا كنوزا في السماء ، فإنه لمن الأسهل أن يمر جبل من سم الخياط عن أن يدخل غني في ملكوت السماوات» .

وظل الناظر هكذا موجها قبضته نحو الحائط ، بينما عرى الآخران رأسيهما ورسما علامة الصليب وهما يتمتمان «أيها الرب! . . إن قدرتك ورحمتك لاحدود لهما!»

وانسحب المعلم الحاج متسللا في هدوء وبطء واختفى ، واستأنف الناظر قائلا : «لقد انسحب الحاج . . انسحب ناجيا بنفسه ، فهو لايحب أن يسمع مثل هذا الحديث ، وهو لايضع قط درهما في صندوق الكنيسة «الناظر لديه منها الكثير في الصندوق» وذلك بالرغم من أن لديه في بيته أكواما من القطع الذهبية ذات الرنين ، وهو يدفن في كل حين تحت الأرض قدورا مليئة بالأصفر الرنان ، ومع ذلك فليس له في دنياه إلا بنت أخت آواها عندما سافر للحج لكي تحرس بيته الحقير ، وهو لايساهم قط

فى زواج فتاة أو تطهير بئر ، ولا يدفع شيئا لتجميل المذبح الذى يتلقى أمامه الزيت المقدس ، آه . . يا له من شقى!» .

واشتعلت المناقشة بعد ذلك فورا كأنها اللهب .

- الحاج يدفع . . هذا محال؟ وتساءل الناظر : لكأنكم لم تروه قط ، وهو يتسلل إلى الحانات ومحال البقالة! فهو يدخل ويلتقط خلسة زيتونة يحملها إلي فمه ويدسها بين أضراسه ويمضغها فى هدوء ماثمن هذا الزيتون يا سيدى العزيز فلان؟

- كذا . .

- هذا ثمن غال . . غال جدا فى الوقت الحاضر ، فالحياة صعبة ، ثم ينصرف ، ويدخل إلى الدكان المواجه حيث يختلس قليلا من الكفيار ويدسه بسرعة فى فمه ، ثم . . هم . . هم . . ويمضغه فى أناة .

- كم ثمن هذه البويضات السمكية؟

- كذا . .

- هذا الثمن غال . . غال جدا . . والحياة صعبة . . ثم ينصرف ويدخل عند تاجر اللحوم المملحة فى الناصية .

- أرنى قليلا من بضاعتك يا أخى . . وأنت تعرف أننى لم أعد أضع قدمى فى دكان فلان .

ويأخذ شريحة من اللحم ويزدردها .

- كم الثمن؟

ـ بالنقود

ـ كم؟

ـ كذا

ـ لقد أصبحت أثمانك لاتطاق والحياة صعبة .

وينصرف ويحس بالعطش فيدخل عند تاجر المشروبات الروحية .

ـ أذقنى قليلا من شرابك . . أى نوع منه لديك؟

ويشفط ماتبقى فى قاع زجاجة : جلو . . جلو . . جلو!

ـ إنه أردأ من الطافيا! . . من يستطيع أن يشرب هذا؟! ومن يدفع له ثمنا؟! . . آه . . يا له من عصير!

ثم ينصرف ، وهكذا يأكل الرجل ويروى ظمأه ، بينما بيته يطفح ثراء .

ويضحك العجائز : هى هى . . هوهو . . هى هى . . يضحكون حتى الدموع ، وينطلقون فى الحديث بحماسة ، وأحدهم أكثر دهاء من الآخر ، بغمزات عينه ، وهما يلويان طرف شاربيهما الواقفين كخطافين بيضاوين يهددان أنفهما .

ـ إن عنق حذائه يرجع عمره إلى أيام شبابه ، وكعب حذائه عندما يتأكل يصلحه بنفسه بواسطة قطعة من الجلد .

ـ فى كل مرة يلقانى تتكرر نفس الحكاية : «أعطنى سيجارة . . لقد نسيت صندوق سجائرى فى البيت» .

تصور! إنه لم ينس شيئا على الاطلاق! . . إنه يشرب العرق

الذى يعده بنفسه ، إنه يجمع فى الصيف ويجففه ويسحقه بين كفيه ويحتفظ به فى خزانة ثم يشرب طوال الشتاد ويسعل حتى تكاد روحه أن تزهق .

وسأل الناظر وهو يضحك ويشد فى شاربه : هل رأيتم قط ماتحت معطف الحاج؟ طبعا لا! وسأحدثكم عنه ، ففى أحد الأيام بعد انتهاء القداس جرى حديث ، وكان هناك عدد من الرجال وبعض السيدات ، وظل الحاج صامتا على مقعد منعزل وكان يتربص القطعة من الخبز المقدس ، واشار شماس ماكر - ليريه على الأرض وعند أقدامنا قطعة صغيرة من النقود ويقول له : «يخيل إلىّ يا سيدى الحاج أنها قد سقطت منك وأنت ذاهب إلى التناول» ، ويقفز الحاج فورا ويقترب من القطعة ويحدجها بنظرة حادة تثبتها فى مكانها حتى لتصعب زحزحتها ولو بالقدمَ وأخيرا يمد يده ، ولكن فى لحظة انحنائه ليتناولها انفجرنا كلنا رجالا وسيدات ضاحكين ونحن نقف من خلفه ، فالحاج كان قد نسى فى المنزل سرواله الداخلى ، وبلغ ضحكنا حدا لم يجرؤ معه أن ينحنى ليلتقط قطعة النقود فاكتفى بالنظر إليها طويلا والدموع فى عينيه ، ثم غادر الكنيسة وهو يتمتم ، إنها نقودى! . . إنها نقودى!»

واستنتج الشماس من بنت أخت الحاج أنه كان يأخذ منذ عشر سنوات قطعا من قاع سرواله الداخلى لكى يرقعه بها عند الركبتين ، وأن المعطف الذى كان طويلا قد أخذ يقصر باستمرار لأنه يجز منه قطعا يرقعه بها عند الأكمام!

-٣-

لم ير أحد قط مدخنة الحاج يتصاعد منها الدخان ، فأثناء العاصف يتجمع الجليد أكواما حتى يصل إلى ارتفاع السقف ، ومياه الأنهار تتجمد كما تشاء ، وكل هذا لايعنيه ، كما لايعنيه أن يسقط البرد كالحجارة فى قلب الشتاء ، أو أن تصل الحرارة فى شهر يوليو إلى الحد الذى تصاب منها الكلاب بالسعار ، فهو يكتفى فى الشتاء بأن يرتعد من البرد ، وفى الصيف بأن يختنق من الحرارة!

وفى كل عام عندما يأتى عيد الميلاد وتقترح عليه بنت أخته التى آواها أن يذبح خنزيرا كما يفعل كل المسيحيين الطيبين ، يرد عليها العجوز قائلا : «إننى أشعر بكثير من الألم يا بنت أختى عندما أسمعه يطلق الصرخات ، إن قلبى لينفطر له حقا ولا حيلة لى فى ذلك فأنا شديد الحساسية» .

- إذن فلتشتره جاهزا

وعندما كانت ليانا توجه إليه مثل هذا الحديث وريقها يجرى وهى تفكر فى شحم الخنزير ، كان العجوز يرد فى هدوء :

- خنزير . . إن لحمه كثير . . ويمكن أن يتلف ونحن لسنا غير اثنين لنأكل منه .

وعندما يقترب عيد الفصح كانت تسأله : «هل سيكون لدينا نحن أيضا يا عمى بيض أحمر من أجل العيد؟»

ـ يا للحماقة! . . بيض أحمر؟! أو ليس من الأفضل أكله طازجا؟ . . بيض أحمر نحتفظ به عدة أيام؟!

ـ فلنكتف بتلوين عدد قليل

ـ إذا لم نلون إلا عددا قليلا فإننا سنوقد النار عبثا ونبذر فى اللون ، أى سنرمى النقود! الزمان صعب يا أبنة أختى!

ـ إذن . . فقطعة مشوية من حمل!

ـ حمل؟ . . أى نوع من الحملان؟ . . ثم كيف؟ وللحمل رائحة النعاج . . وعيد الفصح يقع هذا العام قريبا من الصيف .

ـ أتسمى هذا صيفا يا عم تيدوز؟ أو ما ترى المطر والجليد؟

ـ الجليد؟ كيف؟ . . إنه ليس جليدا فهو يذوب بسرعة وأنا أختنق من الحر . . أف . .

ـ وأنا أموت من البرد!

ـ تموتين من البرد؟ . . موتى . . وهكذا عرفتك دائما نهمة . . ناكرة للجميل!

وتصمت لينا وتعلج لجامها! وهى فقيرة ليس لها أحد فى العالم .

تصمت لأنه عندما يغضب العجوز يصيح ويصك الباب ، ثم يرتمى على السرير ويئن حتى منتصف الليل ناسيا حتى أن يعطيها شيئا من الخبز .

ومنذ شبابه المبكر كان الحاج طفلا عاقلا «واعيا» ولم يكن أحد

يسمع مناغاته ولاصوت خطواته . . ولم يكن يستخدم حذاءه أو يمزق ثوبه ، وعندما يمسك بشيء يحكم قبضته عليه .

وبعد ذلك عمل صبيا فى ورشة للأشرطة المطرزة ، وكان يتحدث برشاقة وحرارة مع رفاقه فى العمل ويقول : «منذ أن كان طولى لايتجاوز طول حذاء وأنا أفهم كيف يسير العالم ، وقد أدركت أن خرقة من القماش يعثر عليها الانسان فى صندوق زبالة تمثل عملا إنسانيا ، ويمكن أن يمتلكها الإنسان إذا احتفظ بها فى عناية ، وعندما كانت أمى تعطينى فلسا لكى اشترى فطيرا كنت أبحث أولا فى حقيبة كتبى ، فإذا وجدت فيها قطعة من الخبز اكتفيت بها ، وهلا يشبع الخبز الجوع ، وإذن فلماذا الفطيرة؟ وكنت أدخر قطعة النقود . . قطعة من هنا وقطعة من هناك ، وهأنا أجمع بسرعة عددا منها . . يمكنكم أن تضحكوا ، ومع ذلك فمن الممكن أن تجروا بين أيديكم قطعا من النقود ، وسترون كيف ترطبكم فى الحر وتدفئكم فى البرد ، ويكفى أن تفكروا فيما يمكن أن تستخدم فيه النقود ، لكى تستشعروا نفس المتعة التى يمكن أن تستشعروها عندما تشترون بها فعلا شيئا ما ، وعندما يستشعر الإنسان المتعة فما الداعى لتملك الشيء المشترى؟

يمكنكم أن تضحكوا كما تشاؤون ، وأى شيء أكثر إشراقا من حفنة من القطع الذهبية المبسوطة فوق مائدة؟ نعم يمكنكم أن تضحكوا . . يمكنكم أن تضحكوا حتى القهقهة ، فما أنتم إلا مبذرين لن تتذوقوا فى حياتكم كلها المتعة الحقيقة» .

وذات يوم لمحه صبى آخر ويداه ترتعشان وعيناه تبرقان كلما تحدث عن النقود فقال له مازحا : «إنك يا رفيقى تجمع وتدخر ثم يأتى يوم تطير فيه مدخراتك ، وعندئذ تستطيع أن تجرى وراءها!» .

وعندما سمع تيودوز هذه العبارات الآثمة نهض واقفا على طرفى قدميه وجمع قبضة يده وحملها إلى فمه وصاح مغلق العينى : «عندما تستطيع أن تلس الأرض كلها فى جيوبك . . عندئذ فقط ستستطيع أن تسرق نقودى! تأكد من ذلك! نعم تأكد من ذلك! ثم إننى ليس لدى فلس واحد ، وفى وقتنا الحاضر لايستطيع أحد أن يدخر شيئا على الاطلاق» .

كان تيودوز يعمل كثيرا ويجمع النقود ، ولا يشرب ولا ينظر إلى بنات الحى ولا يأكل إلا الخبز مبللا بالنبيذ الرخيص ، وبعد عشر سنوات كان قد استثمر جزءا من ماله مع صاحب الورشة ، وبعد ذلك بخمس سنوات أخرى أصبح شريكا معه مناصفة .

وفى أثناء السنوات الأولى من تلك الشركة كان قد نحف كثيرا وشحب لونه ، وفى سن الثلاثين كان يبدو شيخا والخوف والهموم أصابته بالمرض ، ولكنه لم يقرر التزام الفراش ، وكان شريكه ومعلمه السابق يدعوه إلى مائدته لكى يمكنه من استرداد قواه ، وعندما كان يأكل لم يكن يترك إلا العظام بعد أن ينظفها تماما .

وبهذا النظام فى الأكل استرد صحته بسرعة ، وذات يوم وبينما كانوا يتناولون الإفطار على العشب لكى يحتفلوا بعيد أول مايو ويحتسون فيه العرق سأله معلمه عرضا : «قل لى يا تيدوز . . أو ما

تريد أن أبحث عن فتاة لطيفة مناسبة ومعها بائنة محترمة؟ وذلك لأن الإنسان يعرف لماذا يعيش عندما يكون له طفل أو طفلان» .

مستحيل يا معلمى! مستحيل امرأة وأطفال يتطلبون غذاء وكساء وتعليما؟ . . ليست لدى القدرة على ذلك ، والقليل الذى أمتلكه مستثمر فى العمل ، والمال الذى يستثمر فى التجارة إنما يملكه جميع أولئك الذين يريدون أن يخاتلوك!

تيودوز يا بنى! لاتقل هذا . . إنه خطيئة . . واحذر أن تجلب على نفسك الفأل السيء!

ولف معطفه حول صدره وتمتم بنغمة الغارق فى التفكير : الفأل السيء! . . مستحيل يا معلمى! الأطفال يتطلبون خبزا وملابس وتعليما ، والمرأة ثيابا ونزهات ومعطفا من الفرو ، وجونلات محبوكة . . مستحيل يا معلمى! . . صدقنى . . مستحيل!

-٤-

أى سعادة استشعرها الحاج يوم أن بقى السيد الوحيد فى المشغل! ولقد أحس أول الأمر بما يشبه الحمى ، فوجنتاه مشتعلتان ، وكذلك رأسه ، وهو يشعر بنمنمة فى عينيه ، وفى كل لحظة كان يخرج إلى باب المشغل لكى يتأمله من الخارج ويتفحصه من جميع جوانبه ويقيس الحجرات ويتأمل الجدران فى عناية ، وأحيانا كان يقف على أطراف قدميه لكى يلقى نظرة فوق

السقف ، وكان المشغل بالنسبة إليه كطفل ، جميل وردى الخدين ، وكأب سعيد لديه مايغدق عليه حنانه ، أو كامرأة فاتنة وهو المجنون الذى يرتمى تحت قدميها مغلق العينين خفاق القلب .

لقد تحقق حلمه ، الحلم الوحيد الذى راوده طوال حياته فهو السيد الوحيد للدكان ، وجميع بكرات الخيط ولفائفه وربطاته ملك له ، وكذلك الأنوال والفكاكات وأكوام الصوف ، وهو وحده القائم على الخزينة ، كما أنه هو وحده الذى يساوم ويحدد السعر ، ويده هو وحده هى التى تلمس قطع النقود .

وفى أول مساء بينما كان يغلق الأبواب والمتاريس كانت عيناه تسبحان فى كل ناحية ، ولايكف عن زجر صبيانه .

برفق! برفق انتبه! إن الأبواب ليست من حديد!

لاتصك المصاريع أيها إنها ليست من حديد!

حاسب على الأقفال أيها الأخرق! إنها . . ثم حتى لو كانت . . هناك يايات ومفاتيح وهى تتكلف المال!

وعاد أدراجه عشر مرات لكى يمعن فى فحص حانوته ، وأخيرا ألقى عليه نظرة طويلة وابتسم له وامتلأت عيناه بالدموع ، ثم قرر أن ينصرف وهو يتمتم : «حانوتى المسكين! . . إنه حزين هو أيضا بستائره المسدلة وبابه المغلق ، وكأنه رجل أغلق عينيه ، ولكن عند الفجر فتحت عيناه ونوافذه أيضا ، ولاح الحانوت وكأنه يتكلم لكى يجذب الزبائن ويرجو لهم صباحا طيبا ، ويدعوهم لكى يشتروا منه شيئا . . يا له من فاتن!»

وعاد الرجل إلى بيته مطئطيء الرأس أشعث الشوارب وهو يجفف العرق الذى يغطى جبهته ويسرع فى مشيته ثم يبطيء ، ويتلمظ ويسعل ، وأخذ يتحدث وحده ، فهو يرى نفسه يجابه الجميع ، الصبيان والعمال والحرفيين الصغار وتجار الجملة ، ويبتسم للبعض ويشد على يده ، بينما يتشاجر مع آخرين ، وفى النهاية يتفق مع الجميع فهو يقنعهم ويغريهم ويخدعهم ، وهاهو يصل إلى بيته منهكا .

وعند مفترق طرق حيث يتفرع طريق يتجه نحو جاليا فرجيلوى يقبع منزل الحاج فى أقصى حديقة ملتفة ، ويفتح باب الردهة ثم يغلقه ، ويدير فى سرعة المفتاح مرتين ، ثم يدخل حجرة صغيرة مظلمة ، ويوقد شمعة ويجلس على الفراش ورأسه بين يديه ومرفقاه على ركبتيه .

الجدران مشققة وصفراء ، وكتل خشب السقف سوداء ومغطاة بطبقة من التراب ، وفوق الإيقونات صورة للقديسين تكاد تكون ممحوة والسرير مغطى بنوع من السجاد الطويل الوبر ، والمخطط بخطوط بيضاء وحمراء ، وإلى الحائط أسندت وسادتان مليئتان بالقش ، وعند مكان الرأس وسادة ثالثة مغطاة بكيس قذر ، والأرض مرصوفة بحجارة عارية وباردة ، والحجرة حزينة مظلمة ، وكأنها قبر ، ومن الخارج لايجرؤ الانسان أن يلقى نظرة من خلال الزجاج الذى لايتجاوز ربع صفحة من الورق خوفا من أن يرى فى الداخل جثثا ممدة على ظهرها .

وقفز الحاج واطفأ الشمعة قائلا : «لاداعى للتبذير ولستُ فى

حاجة إلى الضوء لكى أفكر! آه يا الهى! يا الهى! كم أنت طيب وحكيم لو أن الشمس لم تكن موجودة فكم من الشموع كان يلزمنى لكى أضيء الحانوت بالنهار! يا لها من تكلفة» ، ولم يكد يقر فى الفراش حتى أخذت أنواع من الأفكار تغزوه ، لذيذة ولطيفة أولا ثم قلقة وداكنة .

أى سعادة فى أن أكون وحدى سيد الدكان! لقد كان المعلم رجلا طيبا ، ولكن مع ذلك ، مفتاحان للخزينة الواحدة ، ويدان تتعاملان فى النقود ، عشرون إصبعا تتجول فوق قطع النقود ، أربعة جيوش وحسابان مختلفان ، من يدرينا! قد يقع خطأ بسرعة ، وقطع النقود بالغة الصغر ، من الممكن أن تنزلق من بين الأصابع وتسقط فى الجيب ، فى الكيس فى حشو الملابس ، لقد كان معلمه رجلا طيبا شريفا ، ولكنه كثيرا ما كان يتسامح مع العمال والموظفين والصبيان عندما يكسرون أو يلتفون شيئا فى الحانوت وإذا جاء شحاذ أو اثنان أو عشرون تكررت نفس الحكاية : «يجب إعطاؤهم شيئا ففى هذا بركة لأطفالنا ، حسن جدا ، ولكن الحاج ليس له أطفال ، ونصف المال المبذول كان ثمرة عمله ، والنقود ملكة ومتعته وسعادته ، ثم إن المعلم كان يضطر إلى شراء ملابس وشمع لعيد الفصح ، كما أنه كان مضطرا أن يدفع للإحسان والأعياء الدينية عندما كان المعلم يسحبه مرغما إلى الكنيسة ، ثم الصندوق!

أى فزع كان يوحى به للحاج! وكان الحساب واضحا ، فوجبات الطعام يقدمها المعلم ، ومكانته عند الناس وسمعته لا تعوض

إسرافه فى الكرم والملابس ضرورية لتلبية دعوات الزيارة . . ونفقات الإحسان الباهظة ، وفوق كل شىء علم خبرته فى تجارة الأشرطة المطرزة .

ويتململ الحاج فى فراشه فسعادته أكبر من أن يتحملها ، وهو لايستطيع النوم فيضحك ويتنهد ويظل مستيقظا ومع ذلك يحلم ، ويا له من حلم رائع! . . آه! يا ليته يدوم دائما! وفى هذا الجو الخانق وهذه الظلمة كم يكون رائعا أن ينتصب ليرى إلى جواره كومة من الذهب آخذة فى الازدياد وكأنها نهر يفيض على شاطئيه ويرتفع من القدمين حتى قمة الرأس . . آه! كم سيكون الحاج إذن مثلوج الصدر لأنه سيكون عندئذ قد رأى وجه الرب وخلوده قبل أن يسلم الروح ، وإذا جاءه الموت ممسكا منجلا من الذهب فإنه سيمسك شباته بكلتا يديه!

قطرات المطر تدق الزجاج والحاج ينتفض وليس هناك أحد ، ويجفف العرق الذى يتفصد من جبينه ، وتلهث أنفاسه وكأنه يصعد تلا حاملا ثقلا على كتفيه ، وقلبه يدق ، فحلم الموت السعيد الذى رآه قد تحول فجأة إلى حياة مليئة بالفزع ، وتتساقط قطرات ثقيلة مجلجلة على الزجاج . . وفكرة أنه من الممكن أن يسطو عليه أحد تجعله يقفز من الفراش ويوقد الشمع وهو شاحب كقطعة من القماش الأبيض ، وشعره الطويل المشعث يتدلى فى خصلات متناثرة فوق قفاه وفوق جبهته ، ويلقى نظرة إلى الإيقونات ويرسم علامة الصليب ويتذكر الربّ ، نعم يتذكر الرب ، ويقول لنفسه إنه إنما يشقى على الأرض

بسبب الكسالى واللصوص ، وإذا سرقوه فإنهم لن يسرقوا الحقيبة ذات المائة ألف دينار المدسوسة تحت الفراش فحسب ، بل سيسرقون روحه ، ويسرقونها عشرة آلاف مرة لأنها منصهرة فى كل من القطع الذهبية ، وهو لم يعرف قط معنى الأرقام عشرة ومائة وألف ، فليست إلا ألفاظا وأرقاما مرسومة على الورق أو محفورة ، وفى العشرة آلاف قطعة ذهبية كان هو قد وضع قلبه عشر مرات ، فالمائة قطعة تحتوى على قلبه مائة مرة ، والألف ألف مرة ، والمائة ألف لاتمثل بالنسبة له كومة من الذهب بل مائة ألف من أطفاله ، وكل منهم يجسد ملامحه وجزءا من ذاته ، وهذا هو السبب فى توجه أفكاره فى تلك اللحظة نحو الرب .

«سأشعل المسرجة بالقرب من الإيقونات وإن يكن الرب الرحيم يرى بالتأكيد بوضوح حتى فى الظلام» قال ذلك الحاج وهو ينهض لكى يتجه بخطى تهزه نحو الصور المقدسة .

وأخذ فى عناية الزجاجة التى تستخدم كمسرجة ، ووضعها على الفراش ، وضغط بأصابعه لكى يقيم الذبالة ، وصب فى الوعاء القذر محتوى الزيانة ، وقاس بنظره سمك طبقة الزيت قائلا : «إصبع من الزيت! إصبع! هذا كثير . . هذا تبذير . . النهار سيبزغ قريبا . . وجلالة الرب لن يستطيع أن يرى هذه الذبالة الصفراء عندما تغمر الشمس العالم بالضوء .

ووضع الزجاجة فى طاسة من الفخار وسكب فيها ماء فتسرب الزيت إلى قاع الطاسة ولم يبق منه فى الزجاجة إلا طبقة فى سمك شفرة السكين .

واندس الحاج تحت الغطاء وأخذت ذبالة المسرجة تقرقع وتئز فاضطرب الحاج وأخذ يطن بين شاربيه قائلا : «لماذا تقرقع؟» إنه سيء ، ومع ذلك فقد وضعت مايكفى من الزيت ، لماذا تئز هذه الذبالة؟ . . المهم ألا تشتعل النار فى الدكان .

-٥-

هكذا وصل الحاج إلى الشيخوخة وكانت حياته سلسلة متصلة من العذاب ، فهو لم يكن يأكل أو يلبس تقريبا ، وكان يعيش بغير نار وبغير وجبات ساخنة وبغير حب لأحد ، يرتعد عندما يمس شبح ساقيه ، ويرتج بابه فى النهار ، ويقوم بكافة الأعمال ، ويلوح بالليل فى حجرته وفى ضوء الشمعة كشبح عظمى .

وفى أيام شيخوخته لاحظ أن تجارته فى الأشرطة تتدهور ، فصفى الدكان وباع كل شيء .

«لقد كسبت مع ذلك لقمة العيش بالعمل المضنى من سن الثامنة إلى سن الستين» .

ولكن هذا الشيخ الذى لم يكن له من أصدقا وأطفال وزوجة غير النقود المدخرة والمخبأة بعناية ، كانت تطارده فكرة وحيدة تسيطر على كافة أفكاره الأخرى وتنزل الاضطراب بسعادته .

«إن الرب يرى كل شيء ويعطى كل إنسان جزاءه . . نعم! يرى كل شيء! . . ولكن ماذا يرى فى الحقيقة؟ إننى لم أسرق أحدا ولم آخذ مال الآخرين ، إنه يرى كل شيء ويعطى كل إنسان وفق مايستحق» .

وتذكر الحاج الإيقونات والعبارات التى سمعها فى الكنيسة فلماذا يعتبر الغنى أثما مادام لم يسرق ولم يضرب أحدا؟ وإذا أعطى الأغنياء كل يوم للفقراء فإن الفقراء سيغتنون والأغنياء سيفتقرون ، وماذا يمكن أن يكسب الرب من ذلك؟ وجسم الحاج لم يطلب قط المرأة ، وشفتاه لم تلامسا قط طفلا ، ومعدته لم تشته أطباقا شهية ، ومع ذلك فإنه مقضى عليه ألا يرى فى الأبدية وجه الرب المشرق؟»

وذات يوم لم يعد الشيخ يستطيع مقاومة أفكاره فاتخذ قرارا خطيرا «نعم . . نعم سأستجلب محبة الرب . . سأذهب إلى الحج فى الأماكن المقدسة! أية تضحية بعد هذه؟ . . الأماكن المقدسة؟ . . حيث توجد غابة الصليب المقدس . . ويستطيع الإنسان أن «يسرح» بمن لم يحجوا باسم هذه الغابة المقدسة . . ولا بد أن جميع الغابات هناك مقدسة .

وسافر العجوز للحج وعاد بلقب حاج ، ولكن أكثر قذارة منه عندما سافر ، وفى كل مرة طلب إليه أن يصف الأماكن التى زارها كان يرد بالحديث عن المعجزات التى تجرى فى غابة الصليب المقدس ، فقد رأى بعينه مرضى بالجذام تشفيهم الغابة المقدسة ، فيكفى أن تمس جروحهم قطعة صغيرة بل صغيرة جدا من خشبها لكى تندمل الجراح ويعود الجلد أملسا فى المواضع التى لم تكن من قبل غير هبر دامية ، وراهب معتزل عاش عشر سنوات دون أن يأكل شيئا مكتفيا بأن يشم رائحة الخشب المقدس ، كما أن مجنونا استرد عقله عندما مست جبهته قطعة من الخشب المقدس .

وبينما كان الحاج يقص تلك المعجزات ويرسم الصليب باستمرار ، كان يبيع قطعا من الخشب المقدس للعجائز والأرامل .

ومع أنه قد سعد سعادة غامرة بعودته إلى كنف الرب ـ وغبطته باسترداده المال الذى أنفقه فى الحج ، بل وتحقيق بعض الأرباح ـ فإنه مع ذلك كان يزمجر ويدور ببصره فى كل ناحية قائلا : «يا لها من تجارة رابحة وعمل مجز وثروة يمكن جمعها ، فخشب غابة الصليب يباع خيرا من الأشرطة! ومنذ أربعين عاما لو أن دكانا اتخذ بيعها تجارة لجرى الذهب إلى خزينته كالطوفان ، وأما الآن فالعالم يسوء يوما بعد يوم . . والإيمان يندر . . آه! يا الهى! يا إلهى!»

ورسم الحاج علامة الصليب مؤمنا بأن العالم يسير نحو الضياع!

ملعونة أيتها الشيخوخة! كم حملك ثقيل ، فالسعال يأخذه مرات أكثر ، ويمكث معه وقتا أطول ، ودمه لم يعد يحتمل البرد ، وذاكرته أخذت تهبط ، وفى مرات كثيرة كان يتشاجر مع نفسه :

هناك ثمانية آلاف

لا بل عشرة آلاف!

كيف . . عشرة؟

إذن فلابد أنه يوجد ثمانية فى الناحية الأخرى

كيف؟ مستحيل! لقد أجدت العد ليلة الأمس .

وأخذ سمعه يضعف أيضا ، وإذا رفع صوته أخذه الخوف ، وأخذ ينظر فورا فى كل ناحية قائلا : آه! أيها الحاج المغفل . . الصغير

العقل . . إنك ترفع عقيرتك كأنك تمتلك ثروة طائلة ، ولكن لا . . إنك لاتملك شيئا! إنك فى فقر أيوب! وبينه وبين نفسه كان يردد «إن لدى بعض المدخرات وهذا حق ، ولكن من الأفضل أن أوهم بأننى لا أمتلك فلسا واحدا» .

ـ٦ـ

وحتى سن الثمانين لم يحدث للحاج شيء خطير ، بل لم يصبه حتى ألم فى أسنانه ، فإذا كان قد فقدها فى الشيخوخة ، فإن فقده لها قد تم بغير ألم إذ سقط بعضها مع الخبز المقدد والبعض الآخر مع لباب الخبز .

ولكن شتاء هذه السنة كان قاسيا ، فالأشجار تقرقع فى الحديقة ، وفوق زجاج الحاج ارتسم الجليد كأوراق الشجر العريضة الكثيفة ، وعبثا كانت بنت أخته تنظف بعض أجزاء هذا الزجاج ، وعبثا كانت تكور فمها وتنفخ بنشاط ، فبقع الجليد كانت لاتلبث أن تتغطى بطبقة من الثلج .

ويصيح الحاج وهو متدثر فى ركن من الفراش : «انفخى بقوة أكثر» ، وترد البنت وهى ترتعش رغم البطانية التى تلفها حول كتفيها :

هأنا أنفخ يا عمى الحاج . . أنفخ . . ولكن البرد يخترقنى وأنفاسى تتقطع ، أعطنى خشبا إذا كنت لاتريد أن نتجمد قبل الغد .

ماذا؟ خشب؟ الآن؟ . . فى هذا الوقت عندما يصل البرد إلى

هذا الحد يتكلف موقد من الخشب على الأقل قطعة من الذهب . . أتفهمين؟ قطعة من الذهب!

وتنسحب ليانا لتأكل فى الغرفة المجاورة ويبقى الحاج وحده وكل ماحوله حزين مظلم وبارد ، وريح ثلجيته تتدافع فى المدخنة ولكنها لاتجد فيها حجرا ولا رمادا .

ويرتعش الحاج ويمضغ قطعة الخبز وتسرى فى ظهره رعشات من الثلج ولايعود يشعر بما بين القدمين والركبتين .

وترتفع أكوام الجليد إلى مستوى النوافذ ، وفى القرية كلها لا يسمع صوت ثان ولانباح كلب .

وينام الحاج على مرارة ، وهو يقول لنفسه : إن الشتاء لو استمر بهذه القسوة لن يستطيع أن يستغنى عن الخشب ، ولما كان الخشب غاليا فإنه سيكون بلاشك طريح الفراش عند نهاية الشتاء ، ولكنه مع ذلك نام فى النهاية ، وإن ظل يتقزز فى فراشه ويتقلب يمنة ويسرة ويحلم طول الليل بأنه يتدفأ على ذهب نار كبيرة .

وفى الصباح تجده بنت أخته نصف متجمد ، وبالكاد وجد القوة اللازمة ليقول : ليانا ليانا . . أوقدى النار بسرعة ، فسأموت من البرد» ويمد لها يده بقطعة صغيرة من الذهب وهو مغلق العينين ، والخجل يراوده من أن القطعة الذهبية ستحس بالسهولة التى يلقيها بها إلى الأيدى التى لاترحم ، ثم يطلق زفرة ينشق لها القلب!

وهاهى النار تئز فى المدفئة وترسل حرارة حية وتلقى بظلالها على الحائط المواجه ، والسقف يقرقع والجدران يغطيها البخار ، وليانا تكشف

سيقانها حتى الركبتين التماسا للدفء أمام النار، ويخرج العجوز من تحت الغطاء ويتدفأ ولكنه مع ذلك يرتعش، وساقاه ترتجفان فهو منهك، ولأول مرة فى حياته يموت لهفة لكوب من الماء .

لماذا أتيت بكل هذا الخشب . . إنه أكثر من اللازم! أكثر مما ينبغى! ستضرمين النار فى المنزل! آه . . الخبز لم يعد يكفينى ولا استطيع الوقوف على قدمى .

وأجابت ليانا : «قد تكون مريضا يا عمى . . هل تود أن استدعى أحدا؟ . . هناك طبيب يسكن إلى جوار الصيدلى .

وصاح الحاج : «لا يمكن أن يجرو أحد على تخطى عتبة دارى . . وثمرة عملى طوال حياتى كلها لن تكفى لدفع ثمن ما يكتبه الطبيب على جذاذة ورق! إننى فى صحة جيدة وقوى، ولم أشعر قط بأننى فى مثل هذه الصحة!» .

ولكن عندما حاول أن يخطو بضع خطوات انهار على الفراش فى نفس اللحظة التى قال فيها : «بالتأكيد! لم اشعر قط بأننى فى مثل هذه الصحة!»

وبعد ثلاث ساعات من الحمى غادر الحاج الفراش وقد ظهر عليه الهزال والشحوب، وغارت عيناه فى محجريهما وتشعث شعره وسألته ليانا فى رفق عما إذا كان فى حاجة إلى شىء .

فأجاب فى حزن : «أريد . . أريد حساء دجاج . . وعليه قليل من الليمون . . لكن لا . . الليمون غال . . وعليه بضع نقط من حامض الليمون! واحذرى أن تكون الدجاجة كبيرة، فأنا أريدها صغيرة ولكن طرية» .

وفى المساء فرشت ليانا فوطة كبيرة فوق الفراش ووضعت فوقها سلطانية مليئة بالحساء الساخن ، ومن هذا الحساء الدسم برز جناح دجاجة أصفر مذهبا ، وعلى حافة السلطانية وضع ملعقة من القصدير وإلى جوارها وضع زجاجة بها قدر إصبعين من النبيذ مغلقة بلفافة من الورق ، وألقى الحاج نحو الفراش نظرة نهمة وجفف جبهته وقال فى ندم عميق : «يا لها من نزوة طفل!»

لقد خيل إليه أنه قد صهر فى يده سبيكة من الذهب ، وسبكها فى السلطانية لكى يشفطها بعد ذلك بالملعقة! واقترب من الفراش وأخذ يأكل ، وكان يقرقع بلسانه وصدغاه يخوران ، وحاجباه يتقطبان إلى حد يكاد يحجب عينيه ، وفجأة طرح الملعقة والتفت نحو ليانا صائحا : «اعطنى ملعقة من الخشب . . فلهذه طعم غريب» .

وخرجت ليانا لتحضر الملعقة المطلوبة والحساء يسيل لعابها فتكتفى بازدراد ريقها .

وأخذ الحاج يأكل فى صخب ، ولعدة مرات صهل وبصق ثم قال : «إحملى هذا الحساء لم أعد أريده . . فأنا أحس له بطعم الصدأ فى أعماق حلقى . . إنه حامض . . ملحى . . إن طعمه ردىء بشكل مخيف! احمليه . . اسرعى . . أو ما ترين أن ما آكله هو حياتى نفسها؟»

وتناولت ليانا السلطانية وحملتها .

وترك الحاج رأسه تسقط على الوسادة المحشوة بالقش ، ولاح كأن

جسمه كله كريشة من لهب! . . يا لها من حروق! لقد أخذ يشعر كأن هوة سحيقة قد انفتحت تحته وأنه سيخر فيها ، وأن سقوطه في جوفها يزداد عمقا باستمرار ، وفى حلقه أخذ يحس طعم الذهب ، ودم الذهب ، وأنه كالأب البائس الذى يأكل لحم أطفاله!

وعندما عادت ليانا إلى الحجرة نهض على مرفقيه وقل بصوت هائج «اطفئى النار ، وردى الجمر والرماد إلى التاجر! ارمى الحساء ، ولكن ردى الريش وماتبقى من قطع اللحم إلى مكانها ، فأنا أريد أن استرد على الأقل نصف نقودى إن لم يكن كلها» .

وأخذ يجهش بالبكاء قائلا لنفسه : «أيها القاتل!» . . أيها المجنون! أيها الوغد! أو ماتشبع أبدا؟!» وتحجرت ليانا فى موضعها دون أن ترفع عنه بصرها ، وفى هذه اللحظة سمعت خلف الباب مواء قطتها ، شريكتها فى البؤس التى تقتسم معها الجوع والبرد ، والكائن الوحيد الذى استطاعت أن تدلله وأن يعزيها .

وواربت ليانا الباب فألقى الحاج نحوها نظرة مذعورة ، وعندما رأى الحيوان ينزلق من فتحة الباب صاح : «اقطعوا ذنبها! . . اقطعوا ذنبها! هذا الذنب الطويل ، فهو الذى يحتاج إلى وقت طويل لكى يدخل الغرفة فيدخل معه البرد ، وفى وجودها نفقة أكثر! أين البلطة؟ أريد أن أقطعه لها بنفسى»! ونهض ، فارتجفت ساقاه وانثنت ركبتاه ، وأخذت جميع مفاصله تقرقع ، وانثنى على نفسه ، وأخذ يرمش بعينيه الجاحظتين ويفغرفاه واسعا ، وسقط على ظهره ، وذعرت ليانا وعدت إلى خارج المنزل وهى ترسم علامة الصليب .

وعندما هبط الليل أخذت ليانا ترقب خلف الباب وهى ترتعد وقلبها يدق فى قوة ، وأرادت أن تدخل المنزل ، ولكن الخوف من أن تجده ميتا أو مجنونا شلها عن الحركة ، والريح تصفر فى المزاريق ، والجليد قد سد باب الدخول ، والمدخل بارد مظلم .

وحول منتصف الليل أحست كأن بحجرة الحاج شخصا يسحب نفسه على أربع ، فمدت أذنها وسمعت فى وضوح صوت قطع من النقود فتمتمت قائلة : «إنه هو . . إنه لم يمت! فالنقود تمد فى حياته . . مسكين يا عمى الحاج!»

وبعد أن هدأت قليلا أخذت تتحسس فى الظلام حتى وجدت مقبض الباب ، وفتحت دون أن تحدث صوتا ، وذهبت لتنام ، وهى ترتفى فى رف لعمها ، قائلة : «آه! المسكين! كم هو غنى!»

وفى صباح اليوم التالى عندما دخلت حجرة الحاج وجدته فى قميص النوم . . قميص بال ممزق ، ووجهه نحو الأرض وقد تمدد مغلق العينين فوق كومة من الذهب ، وهو مغطى بالذهب ، واتخذ من كومة أخرى من القطع الذهبية وسادة .

وعندما رأته بنت أخته أخذت تبكى .

ولكن فيما يشبه المعجزة اهتز الحاج مرتجفا ، فصلصلت قطع الذهب على طول جسمه من قدميه إلى جبهته ، ورفع رأسه وفتح عينيه ، وأدار نحو ليانا نظرة خابية ، ثم تمتم بعبارات غير مفهومة ، وعض الهواء بأضراسه العارية واستطاع أن يقول : لاتنظرى . . اقفل عينيك! . . فالعينان أيضا تسرقان! . . اقفلى عينيك»!

فتح فمه فانهار لسانه فى حلقه ومالت رأسه إلى ناحية وتصلبت ساقاه ، وتشنجت يداه بين قطع الذهب ونام إلى الأبد مفتوح العينين ومحدقا فى ليانا ، وعندما غسلوه رأوا على ركبتيه وصدره وجبهته خاتم القطع الذهبية! ولكنه كان من الشاق إسدال جفنيه دون خلعهما ، فإغلاق عينيه المذعورتين كان أمرا مستحيلا!

وأقامت له ليانا جنازة ضخمة ضمت عشرة قسيسين ومطرانا وعربة وقربانا وراية كنيسة الترينيتين وزهورا وشموعا وأقمشة حداد ، حتى أخذ من شاهدوا تلك الجنازة يقولون : «يا للجمال! يستطيع أن يكون راضيا!»

ومشت ليانا على رأس الموكب ، ومن خلفها عدد من الشيوخ ومن بيهم ناظر أملاك الكنيسة الذى سأله أحد الشيوخ قائلا : هل ترك ثروة كبيرة؟ فأجابه الناظر : مليونا!

ـ كم؟ . . مليونا؟!

ـ مليون! أى عشرة من مئات الآلاف

ـ مسكين أيها الحاج!

ـ لو أنه رأى كل ما أنفق على جنازته!

فقال أحد الشيوخك «مات»!

وأخترقت العربة وهى تهز جلاجلها الفضية فناء الكنيسة بينما كانت أصوات خافتة تترنم بصلاة الموتى «فلتخلد ذكراه . . فلتخلد ذكراه» .

تيودور أرغيزي

١٨٨٠

يعتبر تيودور أرغيزى أكبر شاعر رومانى بعد ايمينسكو وقد دفعه القلق الأصيل فى طبيعته وسط ظروف المجتمع الرومانى فى سنة ١٩٠٠ إلى أن يحيا حياة متنوعة متناقضة خصبة التجارب ، فعمل تباعا راهبا وصحفيا وحرفيا فى رومانيا أو فى سويسرا حيث أقام زمنا طويلا .

وقد كرس أرغيزى جهده ـ فى حماسة حارة لاتخبو ـ للشعر ، كلما فرغ من تحرير تحقيقاته الصحفية الهادرة ضد مظالم وفساد الحكم البرجوازى ، ومجموعة أشعاره الأولى «أقوال متجانسة» سنة ١٩٢٧ تبعتها مجموعات أخرى مثل «أزهار العفونة» و«أشعار المساء» و«سبع أغان» و«الفم المغلق» و«الأعشاب السيئة» . . الخ

وأخيرا الحلقتان الكبيرتان : «أغنية الانسان» التى يحدد فيها أرغيزى وضعه التقدمى فى معركة ازدهار المجتمع الاشتراكى و«حلقة ١٩٠٧» التى يرسم فيها صورة درامية لثورات الفلاحين سنة ١٩٠٧ ، ويهاجم فى عنف القمع الدموى الذى قوبلت به من الطبقات المسيطرة ، ولنذكر من بين مؤلفاته النثرية : «إيقونات من الخشب» و«الباب الأسود» و«لوحات من مقاطعة كوتى» ، «كتاب

اللعب» الذى يضم : «صور جديدة» و«ميداليات» ثم روايات «عيون العذراء» و«جبانة البشرى» و«لينا» .

وفى الشعر والنثر على السواء قلب أرغيزى التعبير الأدبى رأسا على عقب بأنه أضفى عليه المعانى الجديدة النابعة من عبقريته الغنائية والساخرة ، تشبيهاته الخام غير المسبوقة ووضع كل ذلك فى خدمة نزعة إنسانية مكافحة محبة للبشر والطبيعة والزهور والحيوانات .

وإلى جوار ميخائيل سادوفيانو الذى توفى أخيرا لايزال الأكاديمى تيودور أرغيزى الدائم النشاط ، الكاتب الكلاسيكى الكبير فى الأدب الرومانى رغم تجاوزه الثمانين من عمره .

ميــــلا

كنت أدير مكتبة فى مصيف تائه وسط البحيرات ، وهناك كنت أقضى إجازات الدراسة حيث أعيد بيع الكتب التى أكون قد اشتريتها أثناء العام مضافا إليها عدد آخر أحصل عليه بالتخفيض ، وكان كل ما أملك من الكتب لايعدو ملء أربعة صناديق ، وكانت مرصوصة على رفين يضفى عليهما شيئا من الحيوية تمثال من الخزف ، وفى هذا العام كنت قد اشتريت أيضا نسرا رماديا ووعلا .

كانت ميلا ترتدى ثوبا طويلا من قطعة واحدة يلفها كأنه القفاز ، وكان ثوبا أسود محلى بأزرار من الصدف وينزل من عنقها إلى حذائها الذى يمسه ، وكانت تأتى منذ أربع سنوات كل أسبوع لتختار كتابا تقرأه ثم ترده ، وقد اعتادت كتبى لمس أصابعها الشقراء الحانية وراحة يدها الوردية ، وذات أصيل تأخرت وخبا الضوء وانتشر الظلام .

وتهافتت الأحاديث متباطئة كأنها العربات المحملة بأعشاب من الظلال تجرها ثيران هادئة ، وأضاء مصباح فى أحد الأدوار من الناحية الأخرى للطريق ، ثم مصباح آخر ، وأخذت واجهات المحلات تتلألأ ، وأمواج من خيوط الذهب ترتسم على مسافة أبعد فى واجهات أخرى .

وخرجت من صمت لأستيقظ فى قلب صمت آخر .

وفى مواجهة المكتبة رفع جزار سكينا طويلة فوق فخذه خنزير مجففة لكى يبدأ فى تقطيعها بمجرد أن تصدر له التعليمات من سيدة ذات عوينات بمقبض ، بينما شاربه الأحمر يصفر فى أذنيه .

ومثله كنت أتساءل كيف أقطع الصمت المظلم فى مكتبى ، فقطعه يستثير الفكر ، والفكر يجلب الصمت ، صمتا عميقا كالنوم ، وتحت مصباح مجاور عكس فجأة شعاعه فى زرقة عينيها ، لمحت دموع ميلا التى كانت تتساقط منذ وقت طويل دون أن أفطن إليها ، وقد دفنت وجهها بين يديها وكأنها تمثال نافورة فى بستان ، وهى تبكى فى هدوء .

كانت دموعها بالنسبة إلى كأنين الزمن عندما يقترب الظلام ، وكتنهدات الألفاظ المرصعة فى أشعة تمزقها الأظافر ، وكأنها العصافير الجريحة التى تخلت عنها روح معذبة .

لقد كانت الزهور والحقول والغابات هى التى تبكى ، بل وربما أيضا مطر الخريف الرمادى ، وكأن جوقة من القيثارات ترتعد فى الفضاء ، وزهرات أقحوان الغابات اللدنة تهتز فوق سيقانها الرهيفة وكأنها لباب الذهب ، وأشجار وهمية تلقى أوراقا وهمية على مخمل الطريق الذى تجوبه رعشة صدى يتيم .

وخطر لى أن أدير محول الكهرباء الموجود إلى جانبى ، ولكننى شعرت بيدى يغزوها خدر عذب ، وأحسست كأننى قد انغمست فى ماء عميق فاتر هادىء لم تجرؤ ذراعاى أن تبرزا منه ، وكثف

الظل وكأن كتبى وجميع اشيائى قد نشر فوقها بساط من الزغب والعشب والحشائش .

وقالت أزهار النباتات المشعة للضوء ، إن القمر سيظهر قريبا .

وقال الجراد الخفى ، ستبرز أمام أبصارنا أبهاء ذات قباب ، وبيوت على السفوح بأسقف من القرميد ، وستنشق لنا بحيرة زرقاء مغطاة بالأزهار وستخترق الوعول المستنقع لكى تعود إلى مأواها .

ثم انظر هاهى الغزلان تقفز فى الموج وتتسقط بأذنيها همسات النسيم ، ثم أنصت إلى هذه الأغنية العميقة التى تشبه النواقيس الغرقى ، والضفادع ذات الظهر التركوازى تظهر فى ضوء القمر فوق رعشة الموج .

وعن بُعد علا صوت بوق فى مكان محاط بجدران صخرية ، وطرقات مزدانة بالزهور ، وحاول رجل يشد حزاما ذا مفاتيح ، أن يفتح فى رفق الأبواب الحديدية الصامتة ، وخطت قدمه فوق الدرجات المخملية ، وكنت هناك خالى النفس وسط كتبى كلها ، وميلا إلى جوارى ساكنة متكئة على الأرفف ، وقد توقف لسانى كإبرة البندول ، وكنت أخشى أن أحركه ، وكيف تستطيع ساعة توقفت أن تحدد الزمن وسط الليل ، فالإنسان ينظر فيه دون أن يرى ، وكان وجه ميلا أبيض كالقماش وباردا ، ومددت ذراعى لكى أضىء النور فاصدمت يدى بكتفها إلى جوارى ، بينما امتدت يدها لتتحسس رأسى وكأنها تبحث عن قبس ، وعندما تصبح الألفاظ عبثا تعرف الأيدى كيف تجد الألفاظ والأفكار المناسبة .

ـ وسألت ميلا : لماذا تبكى؟ لماذا؟!

ـ أنا لا أعرف البكاء

ـ ولكننا نبكى على غير وعى منا كالغرقى فوق جزيرة مظلمة .

ودخل زبون ضعيف البصر يتعثر فى خطاه إلى الدكان فأعادنا إلى الواقع وهو يقول : «عفوا . . هل هنا أحد؟ . . إننى أريد مرجعا حسنا فى الفلسفة العامة» .

القـــط

لقـد دخل المنزل منذ شـهرين فى انطلاق وبساطة ، وبالرغم من أنها كانت أول مرة يدخله فيها ، فقد لاح كأنه يعرف الأماكن ، وأنه قد أمتلك يوما شيئا فى هذا المنزل ، بدليل الألفة المتناهية التى كانت تلوح فى نظرات عينيه الصفراوين ، وثبات خطوته المخملية المنسابة ، التى أخذ يجوب بها الحجرات وبفروته المخملية ، وملكة الملوك نفسها لايمكن أن يكون لها مثل أقدامه الرقيقة وخطوة الأرستقراطى الطلق ، والمشية العذبة التى يسير بها قطنا الضال .

من أين أتيت أيها القط الأسود كسواد الظلام ، واللدن كالبخار المتصاعد من الهوات الداكنة؟ وكيف اخترت مسكننا مأوى؟ وهل كنت عندنا من قبل أثناء غيابنا أو نومنا أو رحلاتنا إلى البحيرات المكسوة بقصب الأعشاب؟ كيف هبطت إلى هنا؟

هل أرسلك أحد لانعرفه يعنى بنا؟

نياو! هكذا أجاب القط ، وقد رفع نظراته المشعة من عينيه القمريتين نحونا ، واثقا من أنها ستلتقى بنظراتنا ، فالله قد منح جميع الكائنات التى خلقها وسيلة للتفاهم ، والأعين هدية السماء ، وقد خلقت خارج إطار الدم واللحم ، وكأن كل عين زهرة تحمل فى جوفها فتاتا من نجمة .

مـادمت قـد أتيتنا فـجـأة فـأهلا بك يامـينو ، انظر إلى هذه الأريكة ، سأعطيها لك هدية! وانظر إلى هذه المرآة التى ستتجمد أمامـها! وفى هذه الإناء الفخارى المطلى بالميناء ستجد نبع ماء لفمك الصغير الشبيه بورة القرنفل الوردية الشاحبة ، وسيملأه لك الأطفال كل يو م بلمـوهم البللورى ، وهاهم الأطفال .

وأجاب القط : مياو مياو!

وفراؤه المخملى يمتد على طول جسمه من الصدغ إلى الذنب ، وهو يروح ويغدو حاكا دفئه بسيقان الأطفال العارية .

والولد الذى لم يرى القط من قبل فى قمة الانفعال ، بينما الطفلة مأخوذة بفرائه الأسود كالليل ، وبقفازات مخالبه الناعمة كريشة فنان ، والجدة الأكثر خبرة فى كثير من الأشياء تضفى على القط وفرائه فضيلة جلب السعادة .

ولم يتركنا القط ، وفوق وسادة من الحرير الخفيف التى تشبه الظلال مطرزة بخيـوط من ذهب ، أخذ ينام ليلا ونهـارا ، وكأنه سيستريح طوال حياته من مشاق ثقيلة أنهكته فى حياته السابقة ، ولما كنا نعمل بلا راحة فقد سعدنا بأن نؤوى فى بيتنا عاشق الراحة والكسل الباسم ، وقد زينا الحجرة التى ينام فيها قطنا بأثمن مانملك من مقدسات : الذبالة والكتب والإيقونات ، وما احتفظنا به من مخلفات الأجداد كساعة الحائط التى تدق الساعات فى بطء كأنها ناقوس البرج ، والأبسطة الصوفية المخططة كأنها الطرق عندما تستحم بضوء الشمس ، وشرابة حرير من المفرش تداعب

أذن القط وكأنها فراشة سوداء نسيت على صدغه ذى الشوارب .

إنه يغزل كالمغزل ، ويوشوش كالبحر ، ويغنى كالريح ، ويصفر كسيقان القمح ، على نحو ما تنتحب الغابة والماء ينساب منها ، ويئن الصفصاف ، وتزمجر العاصفة ، وهو فى نومه يضع أذنه على الأرض ليسمع مزهر العالم ، وصوته يغنى فى كل شىء فى السماء وفوق الأرض ، وفى الهاوية ، وفوق القمم الضاربة فى الفضاء ، وحلمه يسمع كصدى قيثارات المياه!

شجرة العرائس [1]

مادمتم قد كنتم عقلاء وما دمتم لم تلقوا اليوم الطبل بالعصى فوق الطست ، وما دمتم لم ترموا الأطباق من النافذة ، وما دمتم لم تكسروا أسنان الأقلام التى أشحذها بعناية كل يوم ، وما دمتم لم تتركوا الصنابير مفتوحة تغرق البيت كله ، وما دمتم لم تلطخوا مقابض الأبواب بالمربى ، وما دمتم لم ترموا فى النار كيس طباقى ، وما دمتم لم تحاولوا إصلاح ساعتى بالشاكوش ، ولم تشوهوها بعد ، وما دمتم لم تصنعوا من حذائى حساء ، وما دمتم لم تحدثوا خروقا وفتحات جديدة فى ملابسى ، فإننى سأصحبكم معى! نعم . . هيا يا صغارى الأعزاء! البنت مع بابا والولد مع ماما لنتنزه فى الحقول بصحبة كلبنا جريفى!

سنخترق أولا ستائر الأعشاب المجنونة ونسير عبر غابات الشيح ، وعبر دانتيللا براعم الأحقوان الصفراء .

وبمجرد أن نخرج من هذه الجنة الوحشية ستحس أقدامكم بعش القديس جان ندوس على بساطه : أنا بأرجلى الكبيرة وأنتم بكعوبكم الصغيرة التى تشبه قطع الخبز المحمرة الوردية ، ولا تلقوا علىّ أسئلة كثيرة فى وقت واحد حتى لا أرتبك ، ولا تكونوا طلعة

---

(1) سيرى القارىء أن العرائس المقصودة فى هذه اللوحة هى كيزان الذرة .

فتسألوا لماذا الأرض سوداء والعشب أخضر والسماء زرقاء ، وذلك لأنني لا أعرف شيئا عن ذلك إطلاقا! وستنطلق أمامنا عصافير ، وقطا مستحيل الجسد ، وغربان كبيرة ، فلاتسألوني كيف ولماذا تطير لأنني لا أعرف ، ولاترموني بالحجارة ، وإلا أختفيت في العشب ، ورفضت أن استمر في السير مالم يعطني كل منكم عشر قبلات صغيرة ، واحدة على خدي والثانية على الخد الآخر ، وعلى الذقن وعلى طول أذني وعلى عيني مغلقة .

ماذا كنت أقول؟ . . آه نعم . . تذكرت . . مادمتم قد كنتم عقلاء فسأريكم شيئا على الناحية الأخرى من القناة ، وهو الطاحونة حيث ترون رجلا عجوزا ذا لحية من الكتان وحواجب كالفرشة يطحن طوال النهار الدقيق الجيد لصنع الحلوى ولن تأخذوا في الصياح عندما نمر إلى جوار الطاحونة ، لأن العجوز سيخرج إلى العتبة ويهددنا بإصبعه الطويل كالعصا ، وعندئذ سأرفع ساقي إلى عنقي! وإذا أمسك بكم العجوز فإنه سيضطركم إلى صنع كرات صغيرة من دقيق الذرة لفئران الطاحونة ولديه منها مايقرب من الثمانمائة!

وعند عبور القناة سأحملكما أنتما الاثنين على ظهري : أحدهما على الكتف الأيمن والآخر على الكتف الأيسر لكي لاتمسك الكابوريا بأرجلكم وتنغمس في صفحة أقدامكما ، وسترون في الماء بهيمة كبيرة وطفليها فوق ظهرها ، منحنيين فوق القناة فلا تسألاني عنهم ، ولاتسخروا مني ، وإلا انحنيت في الماء

على أربع وعبرت فى هذا الوضع بكم القناة ، وأنا أصيح «كواك كواك» مثل هذه الضفدعة التى أخرجت من الماء خيطومها الأخضر لكى تضللنا وتخيفنا!

ثم إننى سأريكم شجرة تنمو فوقها العرائس ، ولذلك سماها الناس «أبو العرائس» وليس لتلك العرائس أم بل لهم أب فقط ، ولكنكم لاتستطيعون أن تتصوروا أى أب هو ، بشواربه الإثنى عشر وذقونه الإثنى عشر الشبيهة بذقون الجدى ، وفى لون الجزر ، وعرائس الأسرة كلها فى هيئة واحدة ، فقد أحمروا لطول بقائهم فى الشمس!

وسأريكم غابة تصنع العرائس مكسوة بملابسها ، مكسوة بسبعة قمصان بيضاء ، ومن فوقها شد الأب عباءة ذات لون أخضر فاتح ، وسترون هذه العرائس واقفة على الشجرة ملفوفة بملابسها «المكشكشة»!

سترون العرائس بشعورها الحمراء الجعدة ، وسنأخذها معنا ولقص شعرها لنعطيها ملابس أخرى ، وذلك لأن شجرة العرائس شجرة ذكية ، فهى تصنع أيضا لآلىء من العنبر الأصفر التى تأكلها الأرانب بالليل فى ضوء القمر!

ليس هذا إلا جزءا صغيرا جدا مما سأريه لكم ، وإذا أراد بابا - ويجب أن يريد وإلا ضربناه بجوارب ماما - فسأريكم أشياء أخرى كثيرة خلف النهر وخلف التل وخلف الأماكن التى يطن فيها النحل ويجأر الدب .

ســـن سعيدة

على المائدة:

الملعقة لاتمسك باليد اليسرى ، حاسب على الفوطة . . ستوسخها! ولست أدرى ما العمل فالأطفال يوسخون خمسة أطقم من المفارش كل يوم! لقد قلت لك إنك ستصيب ملابسك بالبقع .

هيا . . ارفع كوعك فسينغمس فى الصلصة والخبز لايقضم قضم الفئران ، بل تؤخذ منه كسرة ويؤكل اللباب مع القشرة! حاسب! . تمخط! . . لقد فقدت منديلك مرة أخرى . . هيا . . مخط أنفك بقوة! مخطه مرة أخرى! ألم تسمع؟ . . تمخط بكل قواك أيها القذر الصغير . . هيا . . غيروا له طبقه! انظروا إلى هذا الخنزير . . ستأكل ماقلت لك أن تأكله ، لا ما تريده ، إن من يريد أن يصبح جميلا يجب أن يأكل الشعرية ، شدوا أذنه! يا إلهى . . لم أر قط أطفالا عصاة إلى هذا الحد ، من الذى علمك أيها الأبله أن تضع الصلصة البيضاء ، فى «الكومبوت»! أمسح فمك! لا ليس بكمك أيها القذر بل بالفوطة! لقد لوثت وجهك حتى العينين ، وبقيت الشعرية على أنفك! لا! لا! اشرب ماء فالنبيذ ليس للأطفال ، وستشرب منه فى مقتبل العمر!

هل لك أن تسرنى بأن تقلع عن «التكشير» ، وإلا أخذت علقة على عجزك بدلا من الكمثرى ، فالكمثرى تقشر قبل أن تؤكل!

لاتمسك السكين هكذا فستجرح نفسك! هه! . . أخيرا . . لقد تعلمت كيف تقشر الكمثرى : الفظ النفاية فى الطبق . . هه! لقد أوشكت أن تختنق! وفى المر القادمة لن تستمع إلى فتكون الطامة .

لقد أكلت جيدا؟ . . قبل يدى وقل شكرا! هيا . . قبل! . . لا بطرف شفتيك ، بل من كل قلبك! لايبونون الآن بل بعد فترة!

والآن أجلس هناك والعب فى لطف أثناء تناولنا للغداء ، إذا أردت أن أصحبك معى للنزهة! أجلس هناك . . هل سمعت؟ ولاتتحرك فسوف نقوم بنزهة جميلة . . أليس كذلك؟

فى النزهة:

ستجننى! . . أين ومتى وسخت ثوبك؟ ألم أقل لك أن تظلى عاقلة أثناء ارتدائى لملابسى؟ بأى حائط احتككت؟ وأنت . . ماهذا البنطلون المفكوك الأزرار؟ هل رأى أحد مثل هذا؟ تعال هنا كى أنظف حذاءك! ما هذا الحذاء «المزيكاتى»؟ أو ما تخجل؟ لقد أضعت زرك «زرارك»! أعطنى يدك كى نعبر الطريق ، ولكن لا . . فأنت تريد أن تدوسك العربات! لقد قلت لك ألف مرة أن تنظر إلى اليمين وإلى اليسار قبل أن تعبر الطريق ، وأن تعطينى يدك! هيا! تماسكوا بالأذرع وسيروا بلطف . . كيف؟ أو ما تريد أن تعطى ذراعك ؛ لأختك؟ أين أنت فيما تظن؟ أعطها ذراعك وفورا ، ولا تزعجنى بزمجرتك! ماذا قلت لك فى أذنك؟ لماذا شتمتها أيها الوقح؟ أترك يدها كى أضعك فى هذا الركن ، وستسرنى بألا تتحرك من هنا حتى يأتى جندى المرور ليأخذك منه! . . وأنفك ملصق بالزجاج؟ . . يا للعجب! هذا الغلام الشقى يجب أن يترك

وحيدا ، وهاهو قد أخذ يتسلق السياج وسيمزق ثيابه ، تعال هنا! أتسمعنى! لاتضطرنى إلى أن أصيح! تعال هنا فورا ، وإلا أتيت أنا يا رأس البغل ، خذ هذه فستعلمك أن تكون أكثر طاعة!

لا لا! إنها ليست لك . . أغرب عنى ، بل لهذا الكلب ، وإلا قفز عليك ووسخك! هيا! إذهب أو ماترى كيف أن الكلب أعقل منك! لقد فهم وابتعد!

لا! لا بالونات تنفجر فورا ، ولديك من المطاط كل ما تريد فى البيت! لا لا! لا داعى للطبلة ، فقد أصبت أذنى بالصمم! هيا! أرفع رأسك إلى أعلى! ما هذه الأكتاف الحنية؟ أتريد أن تصبح أحدبا؟ لا . . أترك هذه القمامة يا قذر! . . مستحيل! هذه الزهور ملك للبلدية ، ولاتمش على العشب وإلا جاءك أبوالشوارب «وهبشك» ، لا . . الإنسان لايشرب ماء المدينة! كيف ستأكل هذه الفطائر الملوثة ، والملبن لديك فى البيت خير من هذا؟ واللعب لديك منها مايكفى ، لاتلمسها فالملك يقيم هنا ، أنت ثانية؟! ألا أستطيع أن أنظر فى واجهة دكان! الشكولاتة تسبب ألما فى المعدة! لا . . هذا ليس للأطفال! لماذا تحك ساقيك هكذا؟ . . لاتستند على لوح الزجاج فستكسره . . ماذا تفعل هناك؟ أخرج إصبعك من فمك!

إذا كنتم عقلاء وسرتم فى لطف فسنذهب إلى المنزل وسأقص عليكم حكاية الدب والقنفذ .

فى المنزل:

لا . . اغتسل أولا ، وسنرى بعد ذلك ، اخلعوا ملابسهم وألبسوهم قميص النوم ، وأعدوا الحمام بماء فاتر . . وتتكرر نفس

الحكاية عندما تأتى عملية الاغتسال . . هل رأى أحد قط إنسانا يأكل أو ينام قبل أن يبتسم؟ . . ما هذا بغير صابون؟ ماذا فى الصابون؟ هكذا بالصابون والماء الساخن! لاتبك وإلا أصبحت قبيحة! فأنت ملحوسة كالفأر الذى رأيته منذ أيام ، اسكتى ستقلبين المائدة وتكسرين كل شىء! انتبهى إلى المرآة ، خذوها من يديها ، لاتشدى المفرش ، إنها الساعة السابعة والنصف ولم تذهبى بعد إلى الفراش؟! فى الساعة الثامنة يجب أن يكون الاطفال وسط الأحلام . . لا لا! نامى سريعا! ليست هناك صور ، ولقد قلت لك مع ذلك إننى سأعود إليك وأنت نائمة ، ما هذه الوسائد الملقاة على الأرض؟ أو ماتخجلين من الضحك على؟ إلى النوم فورا ، لماذا هذه الشقاوة؟ . . آه! وأنك ستتسلين بذلك . . هه . . خلاص! فأنا أنام .

أيها الشقى! انتظر قليلا حتى أنادى بابا! هيا يابابا تعال ومعك حقيبتك وخذ هؤلاء الملاعين الذين لايريدون أن يناموا! ماذا! تقولين؟ ليس هنا ملاعين؟ أو ما تخجل من هذا؟ لا لا لا! سننام أولا وسنقرر غدا متى نذهب للنزهة ، نام الولد الصغير وبين ذراعيه عروس عجوز من الخشب ، والبنت تحتضن على صدرها قسيسا فى ثوب أحمر وقلنسوة ونظارات .

وقالت الأم : آه كم أتعبونى . . هؤلاء العفاريت الصغار وقال الأب : قبليهم برفق لكيلا توقظيهم .

قال ذلك وهو يدخل غرفة النوم بمعطفه وطاقيته المبطنة وعصاه ، ولنذهب سريعا إلى المائدة فالساعة الآن التاسعة والنصف .

خطاب عائلى

كان لدينا قديما فى صندوق قبعات قديم دب من القطيفة لو لم يكن أصفر فى لون عباد الشمس لأصبح مخيفا ، ولأرتعد منه المخزن كله ، وكان تحت أخشاب السقف أيضا خروفان مجزوزان وثلاثة أبقار كسيحة ومهر سكن هناك لأنه من الخشب!!

كان دبنا إذن أصفر ، وهذا اللون يجرد الأشياء من صرامتها ولايخيف أحدا ، ولهذا اختارته الأزهار ، وكان للدب فوق ذلك عينان من الزجاج تتجهان بنظراتهما مباشرة إلى السقف ، وأعتقد أن الآنسة الخياطة بعد أن كست الدب بست قطع من القطيفة ـ التى فصلتها بمهارة ـ أخطأت فى اختيار الصندوق ، عندما همت بتركيب العينين ، فبدلا من أن تأخذ عينى دب أخذت عينى حمامة! والدبُ فيما يبدو لى يجب أن تكون نظرته شريرة ومع ذلك فنظرة دبنا كانت مليئة بالطيبة .

كان الدب قد أقام هنا فى المنزل عامين كاملين قبل أن يصعد إلى المخزن ، ولكنه كان يحدث من الأضرار ما اضطرنى إلى أن أعزله ، وهكذا استيقظ ذات صباح ليجد نفسه فى صندوق القبعات بعد أن حاولت عبثا وبكل الطرق أن أرده إلى الاستقامة .

فالخياطة عندما كست دبنا بقطيفة جاكتة مبطنة من مخلفات الجدة لم يخطر ببالها أنها بحبك هذا الكساء ، قد خلعت عليه

دون أن تدرى عيوبا ، لم تكن فى الجاكتة ولا فى القطيفة فى الزمن الخالى ، وأبو جميع الدببة الذى يتجول فى الخفاء عبر العالم ، ويسهر على صغاره ، هناك بأعلى الجبل ، حافرا لها كهوفا ، ومدحرجا فى الشتاء كتلا من الصخر ليوصد بها أبواب تلك الجحور ، والذى يقلق صغاره أثناء نومها ويمشطها ، ويقص أظافرها بمنشار من الفضة يحتال لكى يمر بالدببة الصغيرة ذات القطيفة المحاكة للأطفال ، وبالفتيات الصغيرات الرقيقات الأنامل ويخدشهم هنا وهناك .

ودبنا قد أكتسب عادة السرقة الرديئة ، ولم يكن يسرق إلا البونبون والشيكولاتة والمربى والفواكه والملبن! وبمجرد أن يأتى بابا إلى المنزل ومعه صندوق من الحلوى كان يتشممه ويسرع فى الإجهاز عليه دون أن يراه أحد .

من أكل الشيكولاتة؟

فتصيح البنت والغلام معا فى جوقة صائحين : إنه الدب!

لقد رآه الاثنان معا ، وقبضا عليه مرات كثيرة وهو يحاول الهرب تحت الأريكة ممسكا الصناديق بين ذراعيه ، وذات يوم مزقا أذنه المحشوة بالقطن ، وخلال عامين كاملين التهم الدب بهذه الطريقة جميع المربى والحلوى والمشمش الأخضر والبندق والليمون الحلو والفالوذج ، ولكن من الواجب أن نقول إنه لم يكن يأكل السلطانية دفعة واحدة بل يأخذ منها قليلا كل مرة ، وكان يتناول بضع ملاعق من المربى وحفنة بونبون يتلمظ بها قليلا قليلا .

وهكذا تقرر عزل اللص فى المخزن كعقاب له وللمحافظة بعد ذلك على المربى وبونبون الأطفال ، ولكنه استمر فى السرقة التى ينزل لأجلها من المخزن ، حقا إننا لم نقابله قط على درج السلم لأنه يحذرنا ، وأما الأطفال فقد رأوه هم ، ولعدة مرات ، فهو يقترب مختلسا الخطى ، ويفتح الدولاب وينزع الأغطية ويفرغ السلاطين والصناديق ثم يعود سريعا إلى جحره ، وذلك لأن الدب لا يفكر فى الاختفاء من الأطفال ، وكان نفيه إلى المخزن ضرورة حتمية بعد أن تبين أن الجمل الصغير الجعد قد انتقلت إليه العدوى من الدب ، فأخذ هو الآخر يأكل السكر .

والكرة حذت حذو الجمل فأخذت تتذوق هى الأخرى المربى المسروقة والبونبون والفطائر ، بل يلوح أن الدب لم يأكل قط قدر ما أخذت تأكل جميع الكرات التى تهجم الآن على السلاطين والصناديق وتفرغها بسرعة .

وبابا لم يعاقب الدب أو الجمل أو الكرات لأنه يعلم أنها لابد أن تنمو كما أن الدواليب لا تغلق بالمفتاح ، بل وغطاء صناديق البونبون مرفوع قليلا ، وورق السلفان الذى يغطى سلاطين المربى غير مربوط ، وذلك لأن الكرات ليس لها أصابع تحل بها الخيط وتفتح الدواليب ومع ذلك فبابا سيتربص أحد الأيام فى الدولاب نفسه ، وعندما يأتى الدب والجمل فى هدوء لكى يتمتعا وبين مخالبهما ملعقة صغيرة سيجدون بابا مختفيا بين سلاطين المربى ، ولست أدرى من الذى سيتملكه الخوف أكثر من الآخرين عندئذ ويولى الأدبار الجمل أم الدب أم بابا؟

سأكتب لكم بما يتم!

الرجل المسكين

كنا نعرفه شقيا بائسا ، وقد أعتدنا حالته الاجتماعية الثابتة إلى الأبد ، كأحد حروف الأبجدية فهو مثقل بالهموم ، ويستنشق حزنا عميقا .

ولم يكن يعرف كلما التقينا به حديثا غير حديث الظلم الأبدى الذى وقع فريسة له ، والمضايقات العديدة التى لابد أن يخوض فيها كل يوم وكأنها البرك ، أثناء غدوه ورواحه ، والرجل المسكين كان يعمل مدرسا أو موظفا أو صحفيا أو بغير مهنة محددة ، وكان الرجل المسكين مشتتا ومجمعا ، وكثيرا مانلتقى فى كافة الطرقات وكافة الأيام بمثل هذا الرجل المسكين المسحوق بين العربات التى خرجت عن شريط الحياة .

وذات يوم بينما كنا نكدح مع عائلتنا فى نزهة يوم أحد على الأقدام بعيدا عن المدينة ، مر الرجل المسكين إلى جوارنا فى سيارة فخمة ، وكل من أفراد أسرته يحمل مخلاة محشوة بالمأكولات ، وقد أغرق أشباحنا فى تراب الطريق وأوشك أن يدوسنا ، وعند عبوره بنا لمحنا ، ولاح متأثرا ، من كان بالسيارة؟! يلوح أنه قد حيانا!

وبعد أيام قليلة قابلنا الرجل المسكين سائرا على قدميه فى المدينة مقوسا ممزق الثياب خابى النظرة ، وكان يحمل تحت ذراعه حقيبة مليئة بالكتب ، وقد أوضح لنا دون أن نطلب منه شيئا كيف

ولماذا كان يوم الأحد الماضى فى سيارة فخمة ، وقد شل معارضتنا بإلحاح ، فأكد أنها كانت عربة أحد أصدقائه وهو رجل ثرى يضعها أحيانا تحت تصرفه لكى يمكنه هو وأسرته من الذهاب إلى الجبل لاستنشاق قليل من الهواء ، وقد انتهز الفرصة لكى يصل إلى مصيف بوستيلى فى الجبل وعاد فى نفس المساء إلى بوخارست والخوف يسيطر عليه من وقوع حادثة ، لا بالنسبة له ولا بالنسبة لقبيلته العائلية ، بل بالنسبة للسيارة ، وكان قد تعلم القيادة لحسن الحظ ، وكان مثالا للحذر ، فعند انحناءات الطريق كان يهدىء إلى أقل سرعة ممكنة ، وكذلك عند ملتقى الطرق ، وكان مالك العربة رجلا ثريا وكريما ، فكان يعطيه البنزين نفسه مجانا ، لكى يجعل النزهة أقل ما تكون كلفة عليه ، وأما فيما عدا ذلك فالأمور تأخذ مجراها العام ، ولما كان الرجل المسكين لابد له من أن يأكل فى بيته ، فقد نقل ببساطة وجبته من العاصمة إلى الجبل!

وفى يوم آخر أخذ الرجل المسكين يبنى بيتا ، ووجدناه يصيح بالأوامر وسط الجرادل والحفر المملوءة بالجير على حافة رصيف ، ويقسم كالوثنى ، وعند رؤيته لنا تحول إلى رجل ودود لطيف ، ولاح خجولا ولكن فى غير اضطراب ، ورأى أن يقدم لنا تفسيرات مؤصلة ، فامرأته قد ورثت من عم بعيد مات بغير وارث مباشر ، ولو كانت التركة متواضعة لما منع ذلك الأسرة من أن تتشجع فتذكر أن لها صديقا بالغ الغنى ، كان قد وعدها بقطعة أرض صغيرة للبناء عن طريق القرض ، على أن ترده عندما تستطيع دون

أن يضع أحد السكين على عنقها ، وأما الطوب فقد استعاره من صاحب مصنع كانت أحواله على غير مايرام ، وقد حصل منه أيضا على الخشب والجير ، وعندئذ لم ير ضيرا فى أن يبدأ العمل وأن يسير فى المهمة ، فالنجاح يصل إليه الإنسان دائما بقوة الإرادة والنشاط ، وخاصة مع الايمان بالله ، وكوخ يملكه الإنسان فى نهاية حياة كادحة أو مايستحقه رجل مسكين؟ ومادام قد أخذ فى بنائه فليجعله أكبر اتساعا حتى ينجزه فى وقت أسرع ، وكان يضم سبع شقق! وأضاف الرجل المسكين : لا بأس! شىء قد بنى باقتصاد شديد وبأقل قدر من المواد .

الرجل المسكين هنا والرجل المسكين هناك ، وفى كل مكان يحاول الرجل المسكين أن يخفف ولو قليلا من بؤسه فى فترة أزمة لم ير لها مثيل من قبل ، وبطريق غير محسوس لم يعد رجلا مسكينا وأصبح رجلا وقحا ، ثرثارا ، يمتدح الشرف والاقتصاد وروح التنظيم والعمل والمثابرة وجميع الفضائل التى يستخدمها رجل مسكين لكى يمتلك منزلا كبيرا وعربة كبيرة وأرضا واسعة وثروة ضخمة ، بريئا عندما يسرق ، وجريئا عندما يصل إلى هدفه .

الرجل المسكين! ماذا تريدون! إنه يفعل مايستطيع!

ماريانيكيفور

اتهمت بالسرقة من أسيادها ماريا نيكيفور الأبية ، المنتمية إلى مقاطعة أولكينيا ، ذات المظهر الذى يشبه مظهر سيدات المجتمع ، وألقيت فى السجن ، وهى حامل دون دليل يدينها ، غير القرائن التى ساقتها ضدها طبيعتها الصامتة ، وفمها المغلق فى عناد ، واقتيدت ماريا إلى عنبر النساء ، كالمهر الضال وسط قطيع من الجاموس الغارق فى الأوحال .

وعند العتبة ارتدت خطوة وشدت قبضة يدها كأنها ستضرب ، فدفعها الحارس برفق فى عنبر النساء ، ولكنها دخلت فى تردد متسللة حتى نهاية العنبر ، وكأنها على حافة معجنة الوحل ، لاينبغى أن توضع القدم على حافتها إلا فى حذر .

ودعتها القديمات فى المهنة قائلات : «هيا يا منافقة! إذا كنت لم تخجلى من السرقة فلاينبغى أن تتحرجى منا! هيا! أقدمى وحدثينا كيف ضربت الضربة!»

وحاصرتها تلك الطغمة من النساء ، ذوات الأوجه الكريهة التى تتفاوت بين الانحلال والحيوانية ، وقد جلسن فى حلقة داخل العنبر يقشرن البسلة ، ورأت ماريا نفسها مضطرة إلى أن تودع لفة ملابسها عند الحارسة وقد وضعت فيها رداءها الجميل ، الخاص بجبال جورج ، ومنديلها الهفاف ، الذى كان يعطيها يوم

الأحد هيئة ملكة منحدرة من مملكة الغزلان والوعول ، بين خادمات بوخارست ، وأخذت أصابعها تسرد حبات البسلة ، وكأنها المسبحة ، وانتهى الموسم وجاء دور الكرنب والطماطم والخيار ، وأخذت ماريا تقشر خضراوات الشتاء فى غير تململ ، وكان صوت يصيح من وقت إلى آخر «إذن يا ماريا هل سرقت أم لا . . يلوح أنك قد سرقت مفارش من أسيادك!» .

وردت ماريا وهى ترسم علامة الصليب :

ـ أنا أسرق مفارش؟ لعنكن الله!

ومر الخريف ثم الشتاء كله ، وفى الربيع وضعت ماريا طفلا كان أول طفل يولد فى هذا السجن ، وكانت محجوزة منذ سبعة أشهر دون أن تستدعى للتحقيق ، وقد حرك نبأ ميلاد كائن إنسانى فى السجن ، انفعالا جديدا فى قلب ثمانمائة سجين ، وقد كان هناك لصوص عتاة مكبلو الأيدى والأرجل يجرون قيودهم منذ سنوات ، متعثرين فيها وكأنهم بروميثيوس الهارب من صخرة عذاب ، والقتلة الخطرون ، والنشالون والنصابون ، والمحتالون الخبثاء بقلنسواتهم المخططة ، وطاقيات المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وجميعهم ـ عندما وصل إلى العالم ـ هذا الكائن الغريب ونزل فى وسطهم ، أحسوا بموجة من الحرارة تغمرهم ، وبخدر باسم يدب فى طبيعتهم الوحشية ، ورأوا فى هذا الكائن الرهيف يدا تمتد إليهم من الله .

وتم التعميد بعد القداس فى كنيسة السجن ، فى حضور جميع المجرمين الذين رددوا الترانيم وغنوا النشيد للرب وترنموا بصوت

ناعم كالقطيفة : «أيتها العذراء المقدسة يا أم الرب ، أمنحينا رحمتك» ، وكان القسيس الذى قدم من القرية ليباشر الشعائر هو المواطن الوحيد الحر ، وأما بقية الجوقة من مغنين وشماسين ومؤمنين فكانوا من المحكوم عليهم بعقوبات تمتد من سنة حبس إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، فهم يمثلون جميع مواد قانون العقوبات .

وتلقى الطفل هدايا عديدة ، فقدمت له ملاعق من الخشب مصنوعة فى السجن ، وحمالات بيض جميلة النقش ، ومسبحات مصنوعة من شعر أشقر ، ولآلىء من لباب الخبز حمراء اللون ، ملونة بالماء المنساب من ميازيب السقف ، المطلية باللون الأحمر!

وأعطاه ميتيتا صانع القيثارات قيثارة جديدة صنعها له خصيصا ، واللص ماراكينيانو مبسما وشمعدانا ، بينما أهداه مزور نقود فلسا من الفضة الحقيقية معلقا فى خيط من الحرير كبركة .

وحوالى عيد الفصح أخذت ماريا تستفيد من بعض المزايا ، والإدارة ابتدأت تشك فى إدانتها فمنحتها حق التنزه فى فناء السجن حيث كانت تخرج وطفلها بين ذراعيها وكأنها العذراء ، وكانت إدارة السجن تحترم وضعها كأم ، احتراما مشوبا بالقلق ، وما كان المسجونون يرونها تظهر تحت الأشجار حتى يتملكهم خوف عزيزى .

ومر عام ونصف على هذا النحو ، وكان من الممكن أن تمر الحياة كلها ، لو أن إدارة السجن لم تنه من خلال الروتين المعقد ، إلى

كتبة النيابة أنهم قد نسوا أن هناك امرأة ومعها طفل مازالت موجودة بالسجن ولم تقدم للمحاكمة ، ولعدم وجود أدلة فى الملف حكم عليها بالحبس خمسة عشر يوما ، وفى الواقع أنه كان من الصعب الإفراج ببساطة عن امرأة متهمة بالسرقة ، وبعد المحاكمة عرف أن أسيادها السابقين قد وجدوا المفارش المذكورة فى دولاب كانوا قد دسوها فيه عند عودتهم من المرقص .

واستمعت ماريا إلى الحكم دون أن ترفع بصرها عن ثديها الذى كان يرضع منه طفل متورد ، يقرقع بشفتيه ، أزرق العينين عميقهما .

وكانت سعيدة بفكرة أنها ستبتطيع بعد خمسة عشر يوما ؛ أن تحمل طفلها الحبيب خارج تلك الأقبية والأبواب المغلقة فى السجن .

وفى اليوم السادس عشر ودعت اللصوص نساء ورجالا وأسندت رأس طفلها على كتفها المطرز بحرير قميصها ، وأخذت لفافة ملابسها ، وتوجهت نحو مكاتب الإدارة حيث قال لها الموظف المختص : «إن أمر الإفراج لم يصل بعد ، وليس لك إلا أن تنتظرى فهو لن يتأخر ، وانتظرت ماريا ساعة وأخرى ثم جاء وقت الغداء .

- ألم يصل ذلك الذى تحدثت عنه!

- لم يصل بعد

وهكذا انتظرت حتى وقت العشاء ، ثم يوما آخر . . ثم اثنى

عشريوما! ومات الطفل الذى كان قد سقط مريضا فى تلك الأثناء ، وفى اليوم الثالث عشر ترك الطفل السجن وحده محمولا إلى المقبرة فى نعش يجره حصان واحد ، وبقيت ماريا بلفافة ملابسها والهدايا التى كانت قد قدمت للطفل فى السجن ذى الأقفال الثقيلة ، وفى اليوم الخامس عشر وصل الأمر ، فقد كانوا قد نسوها للمرة الثانية!

وعند عتبة باب السجن الكبير ترنحت ماريا نيكيفور وانهار وجهها ، وعجزت عن أن تتم الخطوة التى بدأتها ، وتجمدت أمام الأسوار ذات المخابىء العالية التى يكمن فيها الحراس ، ومن فوقها ترتفع قباب الكنيسة ، وأكثر علوا قبة السماء البيضاء فى الخريف .

وفى مواجهتها على مسافة ما كانت تلوح المقبرة ، وإلى اليمين الطريق الذى ينحدر إلى المدينة . . إلى العاصمة .

بنايت إستراتي

١٨٨٤ - ١٩٣٥

بالرغم من أن بنايت استراتي قد كتب مؤلفاته أول الأمر بالفرنسية ، إلا أن جوركي البلقان - كما عرفه في روعة رومان رولان - ينتمي إلى رومانيا بالمادة وروح الخلق ، وهو قد ولد في برايلا على شاطيء الدانوب ، وقد عاش استراتي شبابه كما وصفه في قصصه الطريفة المؤثرة ، واضطر إلى أن يزاول كافة المهن ، وأن يمر بكافة التجارب ، وبعد سنوات شاقة طويلة عرف في فرنسا - بعد سنة ١٩٢٠ - النجاح الذي ضمنه له انتاج أدبي فريد في نوعه ، يضم الشعر ، والواقعية الحادة ، والاعترافات ، والحوار الدسم ، وتصوير الفلاحين المرهقين بالبؤس ، وتمرد الفقراء وسحر الموانى ، والدعارة في الطبقات الدنيا ، وسحر الشرق الأوسط ، والحنين إلى سهول الوطن .

فكل هذا وجده القارئ الغربي في كتب استراتي ، مع ماتثره فيها من اصطلاحات ، وأمثلة رومانية ، نقلها كما هي إلى الفرنسية لكي يزيد من إشراق أسلوبه ، ولنذكر من إنتاجه القوى الأصالة ، قصص «أدريان زغرافي» و«كيراكيرالينا» و«العم أنجيل» و«الهيدوكيون و«أشواك باراجان» .

كيراكيرالينا

يقص استاورو - بائع الليموناده فى قرية برايلا برومانيا - على صديق له تاريخ حياته الغريبة المحزنة .

منذ طفولته شاهد حياة اللذة التى عاشتها أمه وأخته كيرا ، وهما معا تجمعان بين الاستهتار والجمال .

كما شهد تاديب الأب - وهو نجار متيسر - والأخ الأكبر للمرأتين ، لمحاولة ردهما إلى حياة أكثر وقارا ، فأم ستاورو - الذى كان يسمى عندئذ دراجومير - أنهكت ضربا ، وفقدت إحدى عينيها ، وذات يوم هربت ومعها طفلاها اللذان انفصلت عنهما سريعا ، ولم يرياها بعد ذلك قط .

وعاد دراجومير وكيرا إلى قرية برايلا ، حيث عاشا فى نزل ، حتى كان يوم استطاع فيه تركى عجوز اسمه ناظم أفندى ، أن يغريهما ويقتادهما إلى مركبه الشراعى الفخم ، وسجنت كيرا فى حريم القسطنطينية ، وأتلف الغاصب الحقير أخلاق الأخ إتلافا نهائيا .

وبعد أشهر طويلة فى السجن الفخم ، استطاع دراجومير أن يفلت ، وكان عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، جميلا فخم الثياب ، ولكن فى سذاجة لاتصدق ، وأخذ يتسكع فى المدينة إلى أن التقطه مصطفى بك ، الذى وفر له حياة أكثر بذخا من حياته

عند ناظم أفندى ، ولكنه أضاف الكحول إلى الانحرافات الأخرى ، التى كان اليافع قد عرفها .

ومع ذلك فبرغم الرقابة الشديدة استطاع دراجومير أن يهرب مرة أخرى ، والكمر - أى حزام النقود المشدود على وسطه - ملىء بالقطع الذهبية والحلى .

واستطاع أن ينتقل إلى بيروت حيث استغلته أسرة من الفنانين ، ثم انتقل إلى دمشق حيث سرق منه - فى أحد الفنادق - الحزام الذى يضم ثروته كلها ، وهاهو يرى كيرا فى عربة تدخل إلى فيلا فاخرة فأراد أن يدخل هو الآخر ، ولكنه ضرب ضربا مبرحا بعصب ثور ، وترك على حافة الطريق فى شبه إغماء من الألم .

● ● ●

هنا تصل رحل عذابى إلى قمتها ، وهنا تنتهى أحزان ثلاث سنوات من الطفولة المعذبة ، وذلك لأنه إذا كان الله قد قسا علىّ وحرمنى من كيرا ، فإنه لم يحرمنى من لطفه ، إذ أرسل لى صديقا .

جمعت جسمى الجريح ، وبمشقة استطعت أن أسحب نفسى إلى الناحية الأخرى من الطريق ، وانطرحت على الأرض منهكا ، وفى تلك اللحظة ، اقترب منى رجل بين الأربعين والخمسين من عمره ، فقير الثياب ، فى زى يونانى ، حاملا فى يد وعاء السحلب ، وفى الأخرى سلة بها الكوبات ، ووضع أدواته وربع أذرعه ، وتفوه بعلامة تعجب صادرة من أحشائه قائلا باليونانية :

«آه يا غلامى المسكين! لقد شهدت ضربك ووقفت عاجزا ، أية إساءة ارتكبتها فى حق هؤلاء المتوحشين لكى يعذبوك على هذا النحو» .

وتطلعت إلى وجهه المشرب بالإخلاص ، وذقنه الشعثاء التى خطها الشيب ، وعينيه الطيبتين الناضحتين بالألم تحت جبهته المجعدة ، وتملكنى الغضب وتمردت على مشاعرى الخاصة قائلا : «اذهب إلى الشيطان! اغرب عنى!»

وانفجرت باكيا ، فتوثبت طيبته وقال : «لماذا ترسلنى إلى الشيطان يا بنى؟» . . إننى أشعر حقا بالشفقة نحوك ، وأريد عونك فى محنتك» .

ـ دعونى لحالى! أنتم جميع الرجال! بشفقتكم وقلبكم! لقد قاسيت منهما الكثير! وأريد أن أموت وحدى .

ـ أوه! البائس . . فى هذه السن الصغيرة وقد تقزز من الحياة! ولكن اشرب مع ذلك هذا الكوب من السحلب الدافىء ، فإنه سيرد إليك شيئا من القوة .

وقلبت كأس السحلب ، ولكنى لم أستطع تكوين رأى فأية قاعدة ، أو أى فهم ، يمكن أن أستخلصه من هذ التجربة القصيرة ، عندما أذكر أن كثيرا من الرجال الذين بدأوا بالتظاهر بالطيبة والكرم ، قد تكشفوا فى النهاية عن أنذال مجرمين؟ نعم فى سن السادسة عشرة كنت قد عرفت حقارة النفس البشرية وإن لم أعرف كل شىء .

لم أعرف بوجه خاص أن أعمال الخليقة بالغة التعقيد والتنوع ،

وأن ألف دناءة تعانيها لا تعطينا الحق فى أن نبصق على الإنسانية كلها ، والله نفسه قد أدرك ذلك عندما غضب من الإنسانية الخطئة فقرر أن يعاقبها ، دون أن يستأصلها ، مادام قد أنقذ من الكارثة نبيا عادلا وأسرته ، وإذا كانت الإنسانية التى عاشت بعد الطوفان ، لم تكن خيرا من الإنسانية السابقة ، فإنها لاتتحمل مسئولية ذلك ، إذ أن الله «مثلى فى السادسة عشرة» لم يحسن فهم العالم ولم يعرف ماذا يفعل!

ولقد عرفت أنا منذ اليوم الذى أرسل لى فيه القدر بربايني بائع السحلب ذا النفس القدسية ، أن الرجل الذى تتاح له فرصة الالتقاء فى حياته بمثل بربايني يجب أن يعتبر نفسه سعيدا ، وإن كنت لم ألتق قط من هذا النوع إلا به وحده ، ولكن كان فيه الكفاية لتحمل الحياة ، بل ومباركتها أحيانا كثيرة ، والتغنى بالثناء عليها ، وذلك لأن طيبة رجل واحد أقوى من شرور ألف ، فالشر يموت فى نفس الوقت الذى يموت فيه فاعله ، بينما يظل الخير يشرق بعد اختفاء الرجل العادل الذى فعله .

اضطررت إلى التسليم ، وعلم بائع السحلب رسول العناية الإلهية المأساة كلها ، وكان علاجه سريعا كالبرق .

قال لى مستخدما فى حذر اسمى المنتحل بعد أن صاغ منه تصغيرا : «ستاوراكى! يجب أولا أن تقلع عن البحث عن أختك بهذه الطريقة غير الحكيمة ، وأعلم أنه من الأسهل أن تنتزع ظبية من فم النمر ، عن أن تنتزع امرأة محبوسة فى الحريم ، وإذا

استطعت أن تتغلب على هذا الضعف العاطفى ، فإن ما عدا ذلك يعتبر فى منتهى السهولة فأنت تملك ثلاثة جنيهات مجيدية ، فهذا المبلغ من المال يكفى لكى تشترى إبريقا للسحلب وأكوابا ، أى ما تراه بين يدى ، وهو الذى يمكنني من أن أعيش حرا منذ عشرين سنة وبعد ذلك تحمل الإبريق على ذراع والسلة على الآخر ، وبارباينى إلى جوارك ، وسنذهب فى مرح ، لنجوب الطرقات والميادين والأعياد والأسواق ، ونصيح فى بهجة : «سحلب! . سحلب! . . سحلب! . . هاهو السحلب اللذيذ! وستفتح أمامك أرض المشرق واسعة حرة! نعم حرة لأنهم مهما قيل عن الاستبداد فى الأرض التركية فإنه ليست هناك أرض يستطيع أن يعيش فيها الإنسان بحرية أكبر ، ولكن على شرط : هو أن تمحو نفسك وأن تختفى بين الجموع ، ولاتلفت إليك الأنظار بأى شىء ، وأن تكون أصم أبكم ، وعندئذ فقط تستطيع أن تدخل فى كل مكان غير مرئى ، والأبواب المغلقة لاتفتح إلا لمن يقتحمها» .

ولم يكد يأتى اليوم التالى حتى كنت أحمل بين ذراعى الإبريق وسلة الأكواب ، وأصيح فى شجاعة إلى جوار بارباينى : «سحلب . . سحلب لذيذ» ، وعرفت عندئذ الطريقة التى يمكن أن يدخل بها فى الكمر ، ذلك الصديق الخائن ، الذى لاقلب له والذى تركه من قبل!

فالنقود تتساقط من كل ناحية ، ودخلت الحرية فى كيسى ، وعند هبوط المساء تذوقت سعادة الرجل ، الذى يستطيع أن يعيش

دون أن تمتلىء جيوبه بالذهب ، وعند تدخين نرجيلتنا فى إحدى الشرفات ، أخذت أتشرب الطيبة التى تشع من شخص بارباينى كله ، لقد كنت معترفا له بالجميل وأحببته كما يحب الإنسان أبا طيبا وصديقا وأقمت عنده ، وعملت معه ، وكنا نتناول طعامنا معا ، وأوقات تسكعنا نتذوقها معا ، وهكذا أصبحنا لانفترق ، ولم تلبث صداقة قوية أن ربطتنا بأن غرست الغصن الصغير فى جذع الشجرة الناضجة .

بل وسبق بارباينى حب استطلاعى بأن كشف لى عن ماضيه ، الذى لم يكن خاليا من الهنات ، بل من المرارة .

كان يعمل مدرسا فى مدينة صغيرة ببلاد اليونان ، وارتكب غلطة عاطفية ، حكم عليه بسببها بسنتين من السجن ، وفقد وظيفته ، وعند خروجه من السجن ، ترك المدينة لكى يجوب عدة مدن أخرى ، اشتغل فيها بالتجارة ، وقاسى محنا وعقد صداقات ، ودمى قلبه ، وكادت مغامرة غرامية أخرى أن تقضى على حياته ، وعندئذ عبر إلى آسيا الصغرى وعاش فى الوحدة والاستقلال بل وفى الحكمة تقريبا .

كان رجلا يجيد الكلام ويجيد الصمت ، يصدر عن طيبة لاتتحول إلى بله ، وعندما لايروقه أحد كان يرى أن لاجدوى من الإلحاح ، وكان يعرف كل لهجات الشرق الأدنى ويوزع فراغه بين القراءة والتسكع وغسل ملابسه ، ولم يكن يدفعنى إلى شىء ، بل كان يرينى فقط ماهو خير ونافع ومن الذكاء أن أفعله ، قد تعلمت

كتابة وقراءة اللغة اليونانية ، ولما رآني متعلقا بحياته في أمانة ، لم يساومني في محبته .

وفي البلد أناديه بلقب «ياسيد» ولكنه طلب مني أن أناديه ببربا ، وبعد قليل أخذت أنسى فقدي لكمري ، وكنزه الثمين ، وأخذت أتحول إلى تلميذ له وصديق وحيد ، وعزاء لأيام شيخوخته .

ولكن بقى لي قبل ذلك سفح شاق لأتسلقه ، وقد تسلقناه معا .

كنت قد نسيت فقد كمري ، ولكنني لم أستطع أن أنسى فقد أختي ، وكنت أحب باربايتي ، ولكني أعبد كيرا ، ولما كنت متأكدا من وجودها خلف الباب الذي ضربت عنده فقد وسوس لي الشيطان أن أعود إليه .

كنا في قلب الصيف ، وبعد ثلاثة أشهر من النزهة الحزينة في باب توما ، وفي غفلة من بربایاني قمت بعدة زيارات للفيلا الملعونة ، وحومت من بعيد ، وتربصت وتجسست ، ولكن بلاجدوى ، فنساء أخريات كن يخرجن في العربة ، وأما كيرا فلا ، وشجعني الحذر الذي استخدمته في أن أقرر ذات مساء ، أن أكون أكثر جرأة ، وحصلت على سلم مستقيم واستعنت بالليل المظلم ، وذهبت لأسند السلم إلى جدار مرتفع يحيط بالفناء ، وكنت أبحث عن وسيلة أستطيع بها أن أرى داخل الحريم ، حيث كنت أعلم أن النساء يرحن ويغدون دون نقاب .

ولكنني لم أجد غير شبابيك مغلقة ، وثابرت ودرت حول

الحائط ، وانتهيت بأن وجدت نافذة مضيئة ، ولم تكن غير غرفة كبيرة ، مؤسسة بأثاث فاخر لا أحد فيها ، وانتظرت خافق القلب بأعلى السلم ، آملا دائما أن أرى النساء يمررن تحت بصرى .

وفجأة فرقعت خشبة السلم التى كنت جالسا فوقها ، وأوشكت أن أسقط ، وتجمدت من الخوف ، وظللت معلقا على نحو ما عندما جاءت هزة مفاجئة عنيفة أراحتنى ، فقد انتزع منى السلم ، وسقطت بين ذراعى جندى البوليس ، الذى كال لى اللكمات ، دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، وشد وثاقى ، ووضعت فى عربة يجرها حمار اقتيدت فورا إلى دمشق ، حيث ألقيت فى الحجز الاحتياطى .

والحجز الاحتياطى فى تركيا ذلك العهد ، كان جحر النسيان بالنسبة للرعايا العثمانيين ، فالشقى الذى يدخله - وبخاصة بسبب الجرائم الكبيرة كجريمتى - لم يكن يعرف قط متى سيحاكم مالم يجر شخص ذو نفوذ حاملا الهدايا ليضرع إلى أحد الحكام ، ولم يكن أقسى ما يعانيه عندئذ فقدان الحرية ، بل الحياة الفظيعة التى يعيشها فى داخل هذا الحجز ، وبخاصة عندما يكون السجان رجلا شابا .

وفى زنزانتى كنا دستة على سرير مشترك مكون من صف طويل من ألواح الخشب العارية يملأ ثلاثة أرباع الحجرة ، وفى أحد الأركان جردل من الخشب بغطاء يذهب إليه كل منا لقضاء حاجته وتنبعث منه رائحة كريهة خانقة ، وقمل الجسم وقمل الرأس والبق الذى لاحصر له ، والفئران تمرح فى فرق ، ولم يعد

أحد يهتم بقتلها ، لأن قتلها يستغرق عمرا كاملا!

وأنواع التعذيب البشعة كانت ترتكب تحت أبصار الجميع ، فالترك واليونانيون والأرمن والعرب لم يعودوا رجالا ، والحقارة الانسانية كانت على نحو لاتنعقد المقارنة إلا بينها وبين نفسها ، وذلك لأن الجنس البشرى هو وحده الذي يستطيع أن ينحدر إلى مثل هذا المستوى من بين كائنات الأرض كلها!

فى جهنم الأرض هذه ووسط هؤلاء الوحوش وقعت ، وكنت غنيمة طيبة بالنسبة إليهم .

لم يقم أحد بالدفاع عنى أو حمايتى ، لا من بين المسلمين ولا من المسيحيين ، واسوأ من ذلك أنهم تقاتلوا بسبب الفريسة الطازجة وانتزعوا الحى بعضهم بعضا ، وهكذا خلال شهر ، عرفت أفظع الإهانات التى يمكن أن يتصورها الإنسان!

واليوم لست نادما علي الوقوع فى هذه المحنة ، فبفضلها عرفت أعماق الكائن البشرى ، وإذا كنت قد ظللت خيرا رغم كل ما رأيته ، وكل ما عانيته ، فإنما ذلك احتراما منى لمن خلق الطيبة وجعلها نادرة ، ووضعها بين الوحوش ، كمبرر وحيد للحياة .

كنت أعتبر نفسى مدفونا حيا ، وأفكر فى الموت ، ولقد حدث لمسجونين لم يستطيعوا تحمل التعذيب أن شنقوا أنفسهم فى قضبان منافذ الهواء الصغيرة ، بواسطة الأشرطة التي مزقوها من ملابسهم بينما كان الجميع ينامون فى الليل ، وكنت مصمما على أن أفعل مثل هؤلاء الشهداء .

ومع ذلك أخذ صوت داخلي يدفعني نحو الأمل ، فقد كنت أعرف أنني لم أعد وحيدا في العالم ، كما كنت من قبل ، فهناك في الخارج رجل ذو قلب ، صديق نادر ، وبالرغم من أنه فقير وبغير حماة ، فإنه طيب وذكي ، ولابد أنه يفكر فيّ ويعمل على إطلاق سراحي .

وكنت على حق ، فذات يوم فتح باب الزنزانة ودخل الحارس ومن خلفه باربايني ، يا لها من سعادة غامرة ، وظهور كبرا وحده هو الذي يمكن أن يضفي علي تلك السعادة ، ولكن في نفس الوقت أي حزن! فالشر قد أشعل الشيب في رأس الرجل المسكين ، وألقيت نفسي على صدره باكيا ، وكل ماظهر من شفقة أمام هذا المشهد المؤلم ، هو أن صاح رجل يوناني ممدد علي سرير : «آه! أيها الشيخ العزيز! أهذا ولدك؟ إنه بضاعة جيدة بالنسبة لهذا المكان! فقد تمتعنا به ، وهانت تأتي لتختطفه!»

إنها أخف عقوبة استطعت أن أحصل عليها فخطؤك جسيم ، إذ أردت أن تدخل بالليل إلي الحريم! ومع ذلك لاتحزن فسأصحبك ، والعالم كبير وسنكون أحرارا ، وإذا استمعت إليّ في المستقبل ستكون سعيدا علي الأرض التركية . . هيا! إلى اللقاء استعد لفجر الغد .

لم أستطع أن أنام طوال الليل ، وعند بزوغ الفجر أخرجوني .

وكان علي الباب فارسان من الجند ، مسلحان بالبنادق والخناجر ومعهما عربة ، ورأيت عندئذ أننا كنا ثلاثة محكوما علينا بالاستبعاد ، وكان باربايني هناك ومعه أمتعتنا ، ووضع الكل على العربة وابتدأت الرحلة إلى دياربكير .

إن حياة الإنسان لاتقص ولاتكتب ، وحياة الإنسان الذي أحب الأرض وجاس خلالها أكثر استعصاء علي القصص ، وعندما يكون هذا الرجل عاطفيا حارا عرف جميع درجات السعادة والبؤس وهو يجوب العالم ، فإن محاولة رسم صورة حية لحياته يصبح عملا مستحيلا تقريبا ، مستحيلا عليه هو نفسه ، ثم مستحيلا بالنسبة لمن يسمعونه ، والسحر والطرافة والمتعة فى حياة رجل قوى النفس ، صاخبا ومغامرا فى نفس الوقت ، ليست دائما فى الأحداث البارزة فى تلك الحياة ، بل في التفاصيل حيث الجمال عادة ، ولكن من ينصت للتفاصيل؟ ومن يتذوقها؟ ثم بنوع خاص ، من يفهمها ؟

ولهذا كنت دائما عدوا لعبارة «قص علينا طرفا من حياتك!»

وهنا أيضا صعوبة . . عندما يحب الإنسان لايعيش وحده والإنسان لايعيش وحده حتي عندما يريد ألا يحب ، كما هى حالى اليوم ، وهذا حق علي الأقل بالنسبة للعاطفيين ، الذين لم يكفوا عن أن يحيوا علي الذكريات ، وذلك لأنه ليست هناك ذكريات بغير حاضر .

ولقد يرغب الإنسان فى الموت كما رغبت بإخلاص عدة مرات فى حياتى ، ولكن الوجوه الجميلة التى عرفتها فى الماضى كانت تتقدم إليّ حية وتلين قلبى ، وتحل البهجة محل المرارة ، وتضطرنى مرة أخرى ومن جديد إلي البحث عن البلسم الخالد في وجوه الناس ، ومن بين تلك الوجوه الجميلة كان بارباياني .

لا أستطيع تقريبا أن أقص شيئا عنه ، فقد عشت ثماني سنوات ملتحما بحياته ، وقد جاب شبحانا دياربكير ، وحلب وأنقره وسيواس وإيرزروم ، ومائة مدينة أخرى صغيرة وقرية ، ولم نبع شيئا غير السحلب ، ولقد مرت السجاجيد والمناديل والسكاكين والعطور والعقاقير والخيول والكلاب والقطط جميعها بأيدينا ، ولكن السحلب المبروك هو الذي كان ينقذنا دائما من البؤس ، وعندما كانت تطرحنا إحدي العمليات التجارية أرضا كنا نجرى عدوا لإحضار الأباريق للسكينة التي علاها الصدأ ، ثم : «سحلب! . . سحلب! . . هاهو السحلب اللذيذ!» ونحن نتبادل النظرات ونضحك .

كنا نضحك لأن باربايني كان صديقا لانظير له ، وكنت أنا سبب الكارثة دائما بسوء تصرفى الخارق ، ومن بين حماقاتى أذكر واحدة كانت عاتية .

كنا قد وضعنا نقودنا كلها فى حصانين جميلين اشتريناهما من سوق كبير على بُعد خمسة عشر كيلو مترا تقريبا من أنقرة ، وكنا سعداء لأن الصفقة كانت طيبة فى رأينا ، وفى طريق العودة ، بسبب الانشراح وبسبب التعب أيضا ، ثارت بى رغبة فى أن نتوقف أمام حانة منعزلة .

وكنا فى الليل ، وعارضنى باربايني قائلا : دع هذا يا استاوراكى ، ولنواصل السير إلى المنزل حيث يتناول كل منا كأسا .

لا يا باربايني! هنا! . . دقيقة واحدة فقط لكي نحتفي بحظنا .

واستسلم الرجل المسكين وربطنا الحيوانين في عمود بالخارج ، واحتفلنا بكأس وعيوننا على النافذة ، ثم بآخر ، وأخذ الجوع يفرى بطوننا فأكلنا وشربنا دورقا ثم آخر ، لأن باربايني أو أنا لم نعد نبصق على الحياة الطيبة! وتحركت القلوب فأخذنا نغني :

لقـــد سكرت من جـــديد

ومن جـديد تكسـر الكئـوس

آه . . إنك تفعل كالحيوان السيء

ولكن وسط الأغنيـــة وقف باربايني هادئا ونظرته إلى ألواح الزجاج السوداء وقال : أي نعم يا ستراوراكي . . إنني أدرك أنك حيوان سييء لأن الحيوانين الجميلين اللذين كانا بالخارج لم يعودا هناك ، إن لم أكن سييء الرؤية .

وفي قفزة خرجت ، ولكنني لم ألتقط غير ضوضاء عدو صاخب يتردد صداه في الليل .

وبعد ساعة ونحن نتعثر في الظلام ونتردى في كافة الحفر صاح بي بربايني مؤنبا : «لقد أردت أن تحيي حظنا ، والآن فلتمش على قدمك أيها الطفل الخائب العنيد ، ولكي تعزي نفسك غن ، لقد سكرت من جديد . .»

ويل لمن يجهل أن السعادة هي أن يحس الإنسان بقلبه ينبض في أرض الإنسان الطيبة ، تلك الأرض الرفيعة المستوى التي تمدك بعصيرها المنعش .

فخلال السنوات التى التحمت فيها حياتى بحياة باربايني فى كل موحد ، كانت الطبيعة نفسها تبدو لى ودودة أخوية شاعرية ، وكان كل شىء يلوح لى جميلا ، وجديرا بأن يحب ، وفقد القبح ما يوحى به من تقزز ، وكانت الحماقة تصطدم بسخريتنا ، والاحتيال ينكشف ، وعنف الأقوياء لاح لى محتملا ، وعندما كان الاحتكاك بالابتذال يأخذ بخناقنا كنا نهرب منه إلى الحياة فى صمت ، إلى الحياة ، حيث تتحدث الطبيعة وحدها بالعينين والقلب ، كان باربايني قادرا على أن يمشى يوما بأكمله دون أن يتفوه بلفظ ، وبالنظرة وحدها كان يرينى مايستحق الانتباه ، وكان يسمى هذا حماما مطهرا ، وكان هذا حقا ، فمشاهد الطبيعة الصامتة تطهر ، وترد للإنسان الذى تجرحه الحقارة روحه ، وليس هناك - مهما بلغ من القوة - من يستطيع أن يمر بالميكروب دون أن يحس بالعدوى .

ولكن هذا الصديق الكبير لسن يفاعتى كان فوق ذلك عالما بالعصر القديم وفلسفاته ، وبجميع أحاديثه عن الحياة ، وهى الأحاديث التى كانت ممتعة فى أوقات الراحة ، وكان يؤديها بأمثلة يستمدها من الحكمة ، وهو لم يكن حكيما ولكنه كان يحب سكينة القلب الواعية .

وقال لى : إن عاجلا أو آجلا لابد أن ينتهى الرجل الذكى إلى فهم عدم جدوى الصخب العاطفى الذى ينزل الاضطراب بالسلام ، ويحرق الحياة ، وسعيد من يصل إلى فهم ذلك سريعا فإن ذلك سيزيده متعة بالحياة .

وفى يوم من أيام الخريف الباردة وجدنا أنفسنا فى معسكر للمناورات بالقرب من حلب ، فانقض الجنود على شرابنا الساخن ، وأسرع الضباط أنفسهم لينعموا به ، ولما كانت لدينا جمرات تحت الإبريقين فقد وقفوا يستكتبون ويتحادثون ، وقص ضابط كبير على مرؤوسيه حماية الجنرال صديق الإسكندر الأكبر ، الذى أعطى رأيه إلى جانب اقتراح السلام ، الذى تقدم به دارا ، قائلا : «كنت مستعدا أن أقبل لو أن الإسكندر الأول أو القاهر الأكبر كان قد رد» .

وأنا أيضا لو كنت . . لو كنت . .

وارتبك الضابط التركى وقال : «آه . . ماذا كان اسم صديق الإسكندر هذا؟»

ورد باربايني الذى كان ينصت للمحادثة «بارمنيون» .

فصاح الضابط : «برافو أيها العجوز ، كيف عرفت ذلك؟ والإنسان لا يلتقى بإسكندر الأكبر وهو يبيع السحلب؟»

فأجاب صديقى : «بل نعم ، فجميع الناس فى حاجة إلى أن يستدفئوا كما ترى!»

وراق الضابط هذا التلميح المزودج المعنى ، وترفق فتحدث معنا ، ولكن فى تلك اللحظة ألتقت نظرتى بنظرته فقال : «لقد رأيتك فى مكان ما ، ووجهك معروف لى» .

فأجبت وقد علت الحمرة وجهى : «لقد كنا فى نفس العربة مع مصطفى بك فى القسطنطينية منذ خمس سنوات» .

أى والله! هذا حق! أنت الغلام الذى كان يبحث عن أمه ذات العين المفقوءة أيها البائس ، لابد أنك قاسيت الأمرين من هذا الشيطان اللعين .

قاسيت كثيرا . . لم أكن أعرفه!

ولكن هل يستطيع الإنسان أن يطمئن على هذا النحو إلى أول من يلقاه ، عندما يأخذ فى مداعبة خدود طفل؟

وظل الضابط يتحدث إلينا وقتا طويلا ، وكشف لى عن السوءات التى كان يرزح تحتها مصطفى بك ، ثم اهتم بباربايني وتحمس لثقافته ، وعند افتراقنا شد على أيدينا فى حرارة ورجانا أن يقبل كل منا جنيها تركيا من الذهب قائلا : «إنه ليس بقشيشا لكنه تقدير لحكمة العجوز ومحنة الشاب» .

وعند العودة إلى المنزل استخلص باربايني العبرة فقال :

«انظر يا استاورو . . فى كل مكان مضللون ، ولكن الذكاء يسقط الحواجز حتى ولو كانت ترتدى حلة عسكرية» .

وأخذ باربايني يدخل فى الشيخوخة ، ومرض القلب يجعله من عام إلى عام غير صالح لكسب قوته ، والتعب يرهقه ، واصبحت السوداوية تعاوده مرات أكثر ، وكنت أنا فى الثانية والعشرين ، قويا شجاعا واسع الحيلة ، وبفضل المدخرات الصغيرة التى كانت لدينا ، أستطعت أن أقرر دعوته إلى الخلود إلى الراحة ، ولكى تروقه تلك الراحة أخترت لإقامتنا مكانا لم نستكشفه من قبل هو جبل لبنان .

آه . . يا له من جبل جميل وحزين ، وكلما فكرت فى العام الذى أقمناه فيه ثمل قلبى ودمى فى نفس الوقت! . . غزير غزير . . . وأنت يا دليتا! وأنت يا هرمون! وأنت يا ملمتين ، وأنت يا شجرات السدر ذات الأذرع الطويلة الحانية ، التى كان يلوح أنها تريد أن تحتضن الأرض كلها ، وأنت يا أشجار الرمان التى تكتفين بثلاث حفنات من الطحلب ، الذى ينمو فى فجوات الصخور لكى تهبى المسافر الجوال فاكهتك الغزيرة العصير .

وأنت أيها البحر الأبيض الذى تستسلم فى متعة إلى لمسات إله الدفء ، وتمد صفحتك الشاسعة الصافية إلى نوافذ البيوت اللبنانية الصغيرة المتدرجة أمام اللانهاية!

إلى كل هذا أقول وداعا فلن أراك بعد ذلك ، ولكن عيناى ستحتفظان إلى الأبد بضوئك الناعم الفريد! لقد خبا هذا النور فى ذاكرتى فالحياة لم تشأ أن تتم سعادتى ولكن يا إلهى! أين ومتى تمنحنا الحياة المتع الكاملة؟

سيزار بترسكو

١٨٩٢

ابتدأ سيزار بترسكو فى سنة ١٩٢٢ بمجموعة من القصص «خطابات . . » ، ثم رسخت قدمه ككاتب مرموق بفضل روايته الطويلة «انهيارات» سنة ١٩٢٧ ، وهى التى عرى فيها صراع الطبقات فى المجتمع الرومانى قبل وبعد الحرب العالمية الأولى .

وككاتب خصب ، خطط سيزار بترسكو لعمل بلزاكى واسع ، حققه إلى حد بعيد ، والثلاثون قصة ورواية التى كتبها يمكن أن تكون «كوميديا بشرية» ، تجمع حقائق المجتمع الرومانى من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٤ وتنقدها بلارحمة ، مثل «كاليافيكتورى» و«كنز الملك درمايتس» و«الذهب الأسود» و«يوم أحد الأعمى» و«عين مصاص الدماء» و«كارلتون» وفى الجنة العامة» و«مدينة البطارقة» . . الخ

ومنذ سنة ١٩٤٤ دخل سيزار بترسكو عضوا أكاديمية الجمهورية الرومانية الشعبية معركة المثقفين الرومانيين من أجل بناء الاشتراكية ، ولم يتخل عن هذه المعركة التى يساهم فيها بقصصه واستطلاعاته ، ومذكرات سياحاته مثل «تعال وسوف ترى» و«رجال الأمس واليوم والغد» و«مذكرات ثأر» و«تأملات كاتب» . . الخ

الذهب الأسود

لقد حول اكتشاف طبقات كبيرة من البترول - في سرعة - قرية بيكول فويفوديزى إلى مدينة ، وأدى تدفق الذهب الأسود إلى تغيرات اجتماعية عميقة ، ولما كانت رؤوس الأموال الرومانية قد أصبحت سريعا غير كافية ، فقد تكونت شركة دولية مديرها العام انجليزى هو ريجينالد جيبونز ، وأسرع أليكوتوادر بريكوب ككثير غيره من الفلاحين إلى بيع أرضه للشركة المستغلة وبدد بسرعة المال الذى دفع له ، واستسلم للخمر ، ولما لم يعد يملك غير بيت صغير ، فقد اضطر إلى أن يقبل وظيفة متواضعة كحارس للمغارة ، ولكن كانت له بنت هى هينوتزا الرقيقة الرائعة الجمال ، التى تعلق بها ريجينالد جيبوتز وتزوجها ، وبعد أن أملى على بريكوب - مقابل معاش يمنحه إياه - أن يذهب ليعيش فى مكان يبعد بمقدار مائة كيلو متر ، وبالرغم من أن هينوتزا كانت مخطوبة لغيره ، فإنها قد استسلمت - كواجب - لزواج بلاحب ظل زواجا أبيض ، وعاشت فى إطار باذخ ، ولكن مع رجل بارد العاطفة ، لابد أن تخضع لمطالبه المذلة ، وأصبحت حياتها من يوم إلى يوم أقسى احتمالا حتى اضطرت المرأة الشابة أن تسلم نفسها بارادتها إلى موت فظيع فى لهب جردل من البنزين أشعلته بنفسها .

وعند العودة من تشييع الجنازة أخذ المهندس سباستيان لودوس الذى أحب المتوفاة حبا لم يعترف به قط ، والجيولوجى الهولندى

فان دن فوندیل یتحدثان فی مکتب بمعمل التکریر .

انهار سباستیان لودوس علی مقعده وجبهته فی یده ، وعلی المقعد الآخر أمام المائدة جلس فان دن فوندیل .

وبنفس خاوية أخذ ينظر إلى الطين الذى يغطى حذاءه وقد احتفظ فى يده بالصحيفة الهولندية التى كان البواب قد أعطاها له ، فأخذها منه آليا .

كان الاثنان عائدين من الجنازة ، ولم يكونا يستطيعان أن يقولا لماذا جاءا إلى هنا بدلا من الذهاب إلى مكان آخر ، ولماذا أتيا معا بدلا من أن يبحث كل منهم عن رفيق آخر أو يبقى وحده خاليا بنفسه .

وفى الخارج خلف زجاج النوافذ المخططة بشعيرات المطر ، كانت الحياة فى معمل البترول تجرى كالمألوف فى مدينة المضخات والأفران والبطاريات والبروج والقباب والأعمدة والخزانات ، والعمال يروحون ويغدون محملين بالمواسير ، والآلات فى أيديهم ، وعربات النقل تمر فى ضجة ، والدخان الذى تسوقه السحب والمطر يطفو كأعلام منكسة ، والرياح تدفعه فيتبدد ، محاولا التسلل على طول النوافذ ، متلويا فى عناد كأنه دخان نار أوقدت ، ويبحث عن منفذ إلى السماء ولكن السماء ترده إلى عالمه ، عالم الأبراج والأفران والبطاريات والخزانات .

وقال سيباستيان لودوس فى صوت مكتوم : «سأعترف لك بشىء . . وهو اعتراف صعب ، ولكننى أعرف أنه سيصبح غدا أكثر صعوبة ، غدا وفى المستقبل وإلى الأبد» . . ولم يقم فان دن

فونديل بأية حركة ولاح أنه لم يسمع شيئا واستمر ينظر إلى الطين الذى يغطى حذاءه ، وقد انهارت رأسه المستديرة فوق صدره ، وكأنها تستعد لأن تنفصل وتتدحرج عند قدميه .

واستأنف سباستيان لودوس قائلا : «أعتقد أنه بالنسبة لهذا الكائن» .

وتوقف لأن الألفاظ لم تسعفه ، وقد ظل الاعتراف غامضا حتى بالنسبة له نفسه ، وكان من الصعب أن يدلى به للغير .

ورفع فان دن فونديل يده الممسكة بالصحيفة وأسندها إلى حافة المائدة .

وحدق فيه من تحت حواجبه الغزيرة ، وقال فى ألم : «أنا أعرف! . . لا فائدة من أن تقول شيئا! إذا كان لديك شيء من العاطفة نحوها فلماذا أخفيته؟ . . لماذا أخفيته على نفسك؟ . . لماذا لم تمنع ذلك؟»

وغطى سباستيان لودوس عينيه بيده ، وأجاب : «لم أكن أدرك الحقيقة ، وعندما اكتشفتها كان الوقت قد فات» .

وأجاب فان دن فونديل بنغمة قاسية : «وكيف فات الوقت ولم يمض غير ساعتين ، فقبل الساعتين لم يكن هناك محل لفوات الوقت ، وقد مضت ثلاثة أيام وثلاثة أسابيع وثلاثة شهور ، ولم يكن الوقت قد فات!»

وقال سبستيان لودوس : «لقد كانت زوجة مديرى» .

وهز فان دن فونديل كتفيه وحدق فى وجهه بشفقة ، واستمر

المهندس الشاب يقول : «لقد كانت زوجة مديرى ، وواجبى كرجل شريف حظر علىّ أن أكشف لها عن مشاعرى ، وفوق ذلك فعلت كل ما استطيع لكى لايثير سلوكى عندها أى شك ، وتجنبتها ، وعندما كنت ألقاها كنت أدير لها ظهرى لكى أتحدث مع أى إنسان ألقاه فى أى موضوع كان» .

وقال فان دن فونديل بابتسامة مرة : «لقد كنت بطلا! . . رجل شرف! . . لو كنت وغدا لدنست شرفها! ولكننا ما كنا لندفن اليوم حفنة من الرماد!»

وجرت فى سبستيان لودوس رعدة ، وأخفى وجهه بين يديه ، واستمر فان دن فونديل فى غير رحمة قائلا : «لقد كانت وحيدة وتعسة ، وكان شبابها فى حاجة إلى دفء شباب آخر ، ولم نستطع أن نفعل شيئا لا أنا ولا الثرى زهاريادو هو ولا السيدة مداليا جريتزسكو زوجة كبير المهندسين ، ولكن أنت ، أنت الذى كنت تحبها! يا له من شىء محزن! لقد كان يكفى أن تحس بهذا الحب من بعيد ، والحب يولد الحب ، وعندئذ كانت ستجد فيك سندا ، كاللبلاب الذى يتسلق على الجدار» .

وغمغم سباستيان لودوس قائلا : «لقد كانت شريفة متكبرة» .

– متكبرة ؟ . . . لا . . . ولم يكن هناك ما يدعوها إلى ذلك . وأما شريفة فنعم ، ولكن الحب لا يخل بالشرف . وكان من الممكن أن تحب ، وكنا نستطيع أن نبعدها من هنا ، وكنت أنت ستنتزعها من هنا . وبعد أن ترحل تلحق بها .

- إن مستقبلى لم يكن يسمح بذلك . . . وكان فيه تحطيمه .

وزمجر فان دن فوندليل فى نغمه كئيبة : آه ! . . . المستقبل! . . . البترول . هناك فى لندن أبله آخر هو خطيبها الأول ، الذى ذهب إلى هناك لكى يرتب لمستقبله على جثتها . . . المستقبل! . . البترول ! . .»

ونظر إلى الخارج من خلال النافذة .

ومن كل جانب كانت الحركة دائبة حول الغلايات الملتهبة وكائنات لطخنها الدخان بالسواد حول الغلايات الحمراء والسوداء .

وقال وهو يضرب بالصحيفة حافة المائدة : « هل لاحظت أن وجهه لم يبد عليه أى انفعال؟ لقد بكى الجميع ، وانتحب الجميع ، واهتز الجميع من شدة الانفعال ، بما فى ذلك مدام تينا ديابونى زوجة ناظر المحطة نفسها ، وأما هو فقد مر متقلص الفكين ، ونظرته مثبتة أمامه .

وعندما انتهى كل شىء قفل راجعا واعتزل فى بيته ، وكان همه الأول والوحيد إزالة آثار الحريق بأسرع مايمكن ، وأنا متأكد أنه الآن يدخن ويقرأ جرائد لندن .

وضرب فان دن فوندليل المائدة فى عنف من جديد بالصحيفة ، فتمزق غلافها واستمر يمسك بالصحيفة آليا كما أخذها من البواب ، وهو يوقع جمله بضرباتها على حافة المائدة . وسقطت عيناه على عناوينها الكبيرة .

وترك الصحيفة تفلت من يده ثم التقطها وأخذ يقرأ : «ليد فى

١٨ سبتمبر ، إن التحقيق الذى جرى حول موت المهندس و .و . سوومونذان لم يسمح حتى الآن بالكشف عن السر الذى يقلق منذ ثلاثة أيام مدينتنا الهادئة ، وافتراض الانتحار قد نحى جانبا ، وليس هناك شك فى الوقت الحاضر فى أن المخترع البائس قد مات مقتولا ، وباعث القتل كان السرقة فيما يبدو . الأدراج والمكتب والدواليب قد وجدت كلها مقلوبة رأسا على عقب ، والأوراق فى حالة فوضى بالغة ، فقد عثر فى المدخنة على بقايا رماد ، ومن المعروف أن المهندس و . و . سوومنذان يعيش منذ إثنى عشر عاما معتزلا فى مسقط رأسه ، عاملا وحده فى معمله الخاص المتواضع ، مستغرقا فى مشكلة العصر المثيرة ، مشكلة مستخرجات البترول . ونحن نميل إلى الربط بين نهاية هذا المواطن التعس والنهاية الغامضة التى انتهى إليها المهندس رودولف ديزل مخترع المحرك ذى الاحتراق الداخلى الذى يحمل اسمه ، والذى أحدث ثورة فى الصناعة الحديثة . فعلى نفس النحو فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٣ اختفى المهندس رودولف ديزل الذى كان عندئذ فى عنفوان العمر ، وهو يتأهب للسفر إلى لندن لكى يناقش تطبيق اختراعه الجديد الذى كان من المقدر أن يغير بناء محركات الغواصات . ونحن نستند على هذه السابقة وعلى الصراع الدائر بين شركة شل الهولندية ومجموعة روكفلر ، لإحباط المحاولات التى يقوم بها الدكتور فردريك برجويس مكتشف الوقود الصناعى . ولما كانت تلك المجموعات قد انتهت باحتكار شركة بيرجينا الدولية لإنتاج البترول الصناعى ، وبذلك أصبحت تحتكر فى الوقت الحاضر تنفيذ براءات الاختراع ـ فإننا نعتقد أنه من الممكن الادعاء بأن المجرم القاتل كان يعمل لحساب أحد هاتين المجموعتين القويتين .

فمثل هذا المنافس الخطر كان لابد من إزالته بأى ثمن وبكافة الطرق .

وجريمة القتل تعتبر من هذه الناحية من أسهل الوسائل فى عصر يمكن فيه أن تعد من شيكاغو خطة محكمة لقتل إنسان ، مقابل خمسمائة دولار ، وبذلك تفقد مدينتنا ابنا نبيلا ، بل أكثر من ذلك تفقد الإنسانية رجلا نافعًا » .

وأن فان دن فوندل وهو يقدم الصحيفة إلى سبتيان لودس ويقول : «اقرأ إذن! . . . المستقبل! . . . البترول!»

ثم تذكر أن المهندس الرومانى لا يستطيع أن يفهم المقال المكتوب بالهولندية فطوى الصحيفة ونهض كما نهض بدوره سباستيان لودوس .

ونظرا من خلال النافذة ثم اقتربا مجذوبين بما يجرى فى الخارج .

وعند الباب كان أليكو توادير بريكوب مشتبكا مع أحد الحراس .

كان يريد أن يدخل ، والحارس يحاول أن يمنعه فصعقة أليكو توادير بريكوب بلكمة من قبضة يده ، وعبر على جسمه .

ووصل مضموم القبضتين عارى الرأس بارز العينين وفى المقبرة وقف صامتا محطما مرتخى الجسم يتحامل هنا وهناك دون أن يلفظ بكلمة أو يبدى مقاومة .

والآن فقط أخذ اليأس يدب فى نفسه ، فإحدى بناته كانت قد أهلكتها صاعقة من السماء ، والأخرى صاعقة من أحشاء الأرض . واقترب بارز العينين مضموم القبضتين مشعث الشعر .

وأراد سباستيان لودوس أن يضغط على الجرس ولكن فان دن فوندل أمسك بيده ولواها قائلا : «اتركه ! إنه الهياج الجنونى!» .

وخضع المهندس وإن لم يفهم .

وأما المهندس الأجنبى المحتل الذى جس الذهب الأسود فى كافة أركان الكرة الأرضية من القطبين إلى المناطق الاستوائية إلى كافة الأطراف المتقابلة فإنه كرر وكأنه يحدث نفسه : «أنا أعرف ما هو إنه الهياج الجنونى الذى يحسه الأهالى ، وهو فى هذه اللحظة هياج فردى أعمى ، انبثق عن اليأس ، أعمى وفرديا ، وهو أول عرض وأول نذير . ولكن بعد ذلك وفى الغد ، وبعد عام أوعشرة أخشى أن يتخلى هذا اليأس الأعمى الفردى عن مكانه ليحل محله صراع من نوع آخر ، صراع منظم واع تقوم به الجماهير الشعبية لاسترداد حقوقها وحريتها وثرواتها التى طالما سلبها منهم أسياد اليوم وشركاؤهم فى الجريمة ، وهذا أمر حتمى لا مفر منه . وأما نحن فلا نستطيع ذلك ، وإنما يستطيعه أولئك الذين سيفعلونه حتما وكقدر لا مفر منه ، وهذه هى الأمارة التى كنت أنتظرها يازميلى وصديقى الشاب» .

وصمت .

صمت ونظر وهو يقترب خطوة .

ومر أليكو توادير بريكوب أمام النافذة مشدودًا فى الملابس الضيقة لحضرى من الضواحى ، حيث كان قد نفى بإرادة السيد ريجينال ديبونز . مر كشبح ضخم مخيف حجب ضوء النهار كله .

وحاول رئيس عمال بولندى أن يقول له شيئًا ، ولكن أليكو

توادير پريكوپ ألقاه بظهر يده فى الوحل وواصل طريقه ، فهياجه الجنونى لم يكن يبحث عن رجال ، على الأقل فى تلك اللحظة !

وخلع أليكو من العقب باب كشك المراقبة ، بقفله وما يتبعه .

وفهم سباستيان لودوس . . .

كما فهم دون فوندل أيضًا .

واستدار المهندس الرومانى ليمسك بالتليفون .

ولكن الأجنبى قبض على ذراعه . ومرة أخرى سلم سباستيان لودوس بسلبية أدهشته هو نفسه ، وغطى عينيه وأذنيه إذ كان يعرف ماسيحدث حتما .

وأدار الرجل الهائج عندئذ المفاتيح المتحكمة فى الضغط : مفتاحا ثم مفتاحين فثلاثة فستة ، وأصبحت غلاية ثم اثنتان ثم ستة على وشك الانفجار بعد عشر دقائق .

وأشعل فان دن فونديل غليونه وجلس على حافة النافذة وانتظر .

وفى مدينة الأفران العالية والغلايات والبروج والمخازن ، المدينة المحاطة بأسوار حمراء ، أخذت تجرى وتضطرب وتتزاحم وتتناثر فى كل ناحية أشباح سوداء . وتأتى لتدق باب المكتب . وترك فان دن فونديل النافذه لكى يدير قفل الباب مرتين ، وبذلك لم يعد يزعجه أحد ، كما لم يعد أحد يستطيع أن يستنجد بالتليفون .

وبعد شهر أو شهرين ستعود الغلايات مرة أخرى إلى مكانها وتعمل من جديد ولن يتغير شىء .

ولكن الرجل المشعث الشعر الموجود الآن فى كشك المراقبة كان قد وصل إلى حقه فى التنفيس عن ذلك العبء الكبير الخادع من الجنون الهائج .

وفتح سباستيان لودوس عينيه وأذنيه بينما أخذ فان دن فونديل يدخن فى هدوء وينتظر .

الانفجار المروع! . . . سيل من النار انقذف ليغزو السماء ! ثم انفجار ثان آخر وغيرهما . . . وأخذت النار تندلع من مخزن إلى آخر ، راقصة متداخلة تصبغ السحب باللون الأحمر وتتبدد ثم تلتقى من جديد ، وتهز فى الهواء ستارا أحمر يشبه قطيفة الأرائك وستائر النوافذ .

وقال فان دن فونديل وهو يضع يده على كتف سباستيان لودوتى : «والآن نستطيع أن نذهب ! أن نذهب لأداء واجبنا » .

وأدار المفتاح وفتح الباب .

وخرج الإثنان وسط الحريق الذى تتحرك فيه أشباح سوداء بعيدا عن الغلايات والأفران المتفجرة التى كان ينبعث منها سيل ضخم من اللهب والدخان .

وشق أليكو توايربريكوب لنفسه طريقا عبر العقبات البشرية وقبضة يده إلى الأمام ، وعيناه داميتان وشعره متناثر جاف . وأخذ يلكم بقبضته دون أن يعرف من يلكم ولماذا .

ومر إلى جواره .

وصاح فان دن فوندیل : «بريكوب» !

ورد عليه أليكو توادير بريكوب بلكمة من قبضته فى صدره ، فترنح فان دن فوندیل وسقطت قبعته وغليونه والصحيفة التى كان يحملها آليا .

وانحنى وجمعها فى هدوء . وبكم سترته مسح قبعته ثم وضع الغليون والصحيفة فى جيبه ، وأضاء اللهب رأسه المستديره بشعاع مخيف ، كما أضاء الجميع .

وانفجرت غلايات أخرى فى زمجرة الزلزال وهزت الأرض والجدران وأطاحت بالنوافذ هشيما .

وأخذ سباستيان لودوس يجرى فى كل ناحية ، ويتحرك فى صخب ، عارى الرأس ، معطيا أوامر قصيرة عديمة النفع . واستادر فان دن فوندیل ليرى إلى أين يذهب أليكو توادير بريكوب ، وقال : «إنه الآن يطارد الرجل» .

ولكن لم يكن هناك أحد ليسمعه .

فأليكو توادير قد عبر الباب تتقدمه الجموع ، مطلقا صرخات مخيفة . وشق العملاق طريقه عبر الجمهور وهو يضرب بلكماته على غير بينة - الرؤوس والصدور .

ووصل إلى باب ريجينالدجيبونز ، وهز الأقفال الثقيله ، ولكن الحديد كان أقوى من قبضته ، وأقوى منه الجدران والحجارة .

واقتربت منه فتاة صغيرة فى رداء وظيفى أسود ، وقالت : «السيد پريكوب !» .

وبكف ملطخة بالدم دحرجها العملاق فى الطين .

ونهضت ڤيفاستويكا صديقة المرحومة .

لم تقل شيئا ، ولم تبك ولم تمسح الطين الذى لطخ مريلتها الجديدة ، بل تسللت تحت ذراع الرجل ووقفت على أطراف أصابع قدميها وأدارت القفل فانفتح الباب وقالت «هيا ! سأفتح لك أيضا باب الدخول» .

ولكن أليكو تواديرِ بريكوپ سبقها . فباب من ألواح البللور يكفيه كتفه .

«الكتاب الثانى الفصل التاسع»

ال . ساهيا

(١٩٠٨-١٩٣٧)

بالرغم من موت ساهيا المبكر ، فإنه يعتبر رائد هذا الجيل الشاب من الكتاب التقدميين الذى يزدهر اليوم فى رومانيا .

لقد عمل صحفيا مكافحا فى سبيل الأفكار اليسارية فى «العهد الجديد» و «القمصان الزرقاء» . وترك ساهيا إنتاجا صغيرا منعه الموت وحده من أن يثريه ويتمه . وفى قصصه وحكاياته كان أول من حقق الطريقه البسيطة المباشرة فى وضع المشكلات وتصوير الناس فى مثل «ثورة الميناء» و «المصنع الحى» أو «أمطاريونيو» التى تعتبر اليوم من القطع الكلاسيكية فى الأدب المستوحى من حياة العمال .

ونزاهته العقلية وشجاعته ، وروحه الديمقراطية الصامدة لاتزال تعتبر مثلا حيا لكتاب اليوم الشبان ، الذين يواصلون اتجاهه فى الكتابة والكفاح وسط الظروف الجديدة التى تلت التحرير .

أمطار يونيو

كانت شمس يونيو تصوب أشعتها الحارقة إلى السهول وقد جف العشب جفافا تاما وغاض عصير الحقول ، فالقمح نادر والسنابل ضامرة ، وشواشى الأزهار البرية الزرقاء ونبات ذيل القط تنتثر على جوانب الدروب الصلبة .

وكانت بعض بخات من المطر قد سقطت حول منتصف مايو ثم لم تسقط بعدها قطرة ماء واحدة .

واتخذ سهل برجان منظراً جهما . ونهر إيالو منزا ينساب فى هدوء بين شواطئه المحروقة ليتجه نحو الدانوب .

ومن وقت إلى آخر يخترق الهواء الخانق صهيل مكتوم لأحد الخيول . والسماء صافية زرقاء . وفى الأفق من ناحية المستنقعات على حدود برجان أخذت ترتسم سحابة واحدة وهى تتقدم نحو حاصدى القمح .

وقطع بيتر ماجون عمله ونهض وهو يقرقع عظامه ، وهب نسيم خفيف من الشرق على ظهره فنفخ قميصه المبلل بالعرق . وقد نصل طلاء مقبض منجله الأزرق على راحة يده اليمنى ، فرشق آلته فى حزمة من القمح . وانتزع بيده حزمة من اللبلاب ودعكها بقوة بين راحتيه ، ولكن الطلاء الأخضر كان قد تسرب إلى المسام

فلم يستطع محوه . وأخذ العرق يتصبب من جبهته على خديه زاحفاً إلى ذقنه لكى يسقط فوق صدر قميصه .

كان بيتر ماجون طويلا ضامراً طويل الرقبة كالنعامة ، وحزمة من البوص تلف خصره ، وكان يعمل عارى القدمين مرفوع السراويل إلى ركبتيه ، وبذلك يكشف عن ندبة كبيرة فى ساقه اليمنى التى كانت قذيفة قنبلة قد أطاحت بسمانتها أثناء الحرب ، مما أعطى ساقه شكل قطعة الخشب المنخوبة .

وإلى جواره كانت تعمل أنا وبطنها المستديرة تكاد تمس ذقنها . وكانت تجد مشقة فى أن تتحرك . ومشيتها تشبه مشية البطة المسمنة أكثر مما ينبغى . فهى تسير منفرجة الساقين ، وترسل من وقت إلى آخر أنات خافتة .

كانت بلا حذاء هى أيضاً . ويداها كبيرتان يعلوهما القشف . وكانت تمسك بيدها اليسرى فى عناية بحزمة من القمح ، وباليمنى تقطع السيقان فى بطء لكى تتجنب الهزات .

وكانت تلبس على رأسها منديلا أصفر عقدت أطرافه على فمها لكى لا يضايقها التراب الذى يتصاعد من القش عندما تحركه ، ومن الأرض الجافة . ومن وقت إلى آخر كانت تذهب لتتمدد فوق القش كحيوان أنهكه التعب . وعندئذ كانت الدموع تتصاعد إلى عينيها ، وبطنها تتخذ شكل تل مشوه .

وألقى بيتر ماجون نظرة قلقة على امرأته فرآها منبعجة بشكل مخيف . وعندما كانت تنحنى كان يلوح أن أنفها ووجهها كله

يدخل فى بطنها وبعد كل حزمة تقطعها من القمح كانت تمسح عينيها بطرف منديلها ، فتلوح لبيتر وكأنها تبكى .

فسألها : «ماذا يا أنا ؟ هل تبكين ؟»

لا جواب .

- قولى . . . هل تبكين ؟

وأسندت أنا يديها فوق ركبتيها ثم مرت بهما فى مشقة فوق فخذيها وعجزها . وكل من هذه الحركات تزيد بطنها انتفاخا . وخلعت المنديل الذى يغطى فمها لكى تربطه على قمة رأسها .

وأجابت وهى تنفخ : «أبكى ؟ . . . لماذا؟»

- لقد اعتقدت أنك تبكين .

- لا . . . ولكنى أشعر فقط أننى ثقيلة جداً ، ولا أدرى لماذا أحس أننى ثقيلة اليوم وكأننى فى أول حمل لى .

واقترب ثور ميزاندرولوكيا ، وهو موثق القدمين ، قافزاً من حافة الحقل ، وهو يرسل نحوهما نظرات خبيثة ، ويستعد للدخول فى القمح .

فأسرع ماجون إليه وهو يقسم ، ويضرب بظهر منجله .

- يالله ! يالك من حيوان ! أتريد أن ترعى حقلى ؟ أنا لا أملك مائة فدان من الأرض بل أملك هذه النتفة ! .

وارتفع صوت ليزاندرولوكيا الذى كان يحصد هو الآخر على مسافة قريبة قائلا : «حيلك يا أب ماجون ! لا تضرب ثورى . . . بل سقه ناحيتى» .

ومرة أخرى انتشر الصمت على السهل .

وبيتر ماجون يحصد بيده العريضة حزما من القمح في حرارة ونهم بالغين . وأنا على العكس تتحرك فى مشقة . فهى دائماً متأخرة عن زوجها . ولذلك كان بيتر يعود أدراجه عندما يتقدمها بكثير .

وصمت الإثنان . وأحيانا كان منجله يتعثر في بعض الجذور فيصيح لاعنا ، بينما تلوح أنا وكأنها لم تسمع شيئاً ، مكتفية بأن تدير رأسها نحوه وتبتسم بشدة ، وكأنها تبتسم رغمًا عنها ، فعيناها حزينتان وقد اتسعتا مسرفا .

وحوم صمت مر فوق سهل برجان ، وكأنه يهتز فى الهواء تحت وقدة الشمس . فالأرض تحترق ، وسيقان القمح تتقصف وأوراق الذرة تصفر اصفرارًا مبكرًا وتتكمش فى شكل أقماع .

ومع ذلك فالفلاحون يعملون ، ولايرى الإنسان غير ظهورهم وهم يتقدمون منحنين عبر حقول القمح ، فهم يحصدون . وعندما ينهضون يفحصون السماء . والزنابير تضرب بأجنحتها السنابل المنحنية .

ومن ناحية المستنقعات ترتسم بقعة بيضاء هى سحابة خفيفة تكاد تشبه خيطا من الدخان على وشك التبدد .

ويمتد الجفاف متسللا كالمرض . . .

ويحسه الانسان فى زرقة السماء الكثيفة وفى خوار الدواب وفى كل ساق سنبلة فوق الأرض المنهكة ، وهو يمتد أبكما ثقيلا كالموت ، مبتلعا المياه والحياة .

ومرة أخرى تذهب أنا لتتمدد على القش .

وينظر إليها بيتر ما مجوم ويتابع بعينيه حركة بطنها وهى تصعد وتنتفض فى إيقاع ، ويقول : « يالها من حياة ! . . . هذه المسكينة أنا . . . تلد كالكلبة ، وكيفما اتفق ، طفلا بعد آخر . ويسألها : «متى الوضع »؟

- فى الحقيقة لا أذكر . وأظن أنه لم يحن الوقت . ربما كان بعد أسبوع .

وتبتسم وهى تنظر إلى السماء ممدة على ظهرها .

- انهضى إذن ولنسرع !

وتنهض أنا وتحمل فى صعوبة . وتتداخل سيقان القمح ، وتترك خلفها صفا من السنابل التى يجمعها بيتر فى صبر وهو يربط حزمه ، وأخيرًا يقول : ربما كان من الأفضل أن تذهبى لتستريحى إلى جوار العربة قليلا ، فهناك ظل ، والحرارة أهدأ ، وحملك يثقلك فيما أرى ، ولا أباهى إذا ذكرت أنك تلدين فى الحقول ، والقرية كلها تتحدث عن ذلك .

- آه . . . القرية . . . ليس هناك غيرى تلد فى الحقول ! وأنا أعلم أن الرجال يضحكون . . . ولكننا نحن نلد أطفالنا فى أى مكان يأتينا فيه ألم المخاض ، والله - لا الرجال - هو الذى ينظم كل هذا .

ومرت بطرف منديلها الأصفر فوق وجهها لكى تمسحه ، وخلعت فى عناية مريلتها من فوق بطنها ، وذهبت والأرض تحرق

صفحة قدميها . وكانت أنا فى قوام ماجون تقريباً ، وأخذت تمشى بخطى واسعة ، ولكن حملها المتقدم كان يفسد اتزان مشيتها . وظلها يتبعها - طويلا مشوها - فوق القش المنتصب ، ويعكس على قمة الذهبية فيصيبها بالدكنة .

وبسرعة تمددت أنا فى ظل العربة رغم ندرة هذا الظل ، فنصف جسمها ابتداء من الخصر معرض للشمس ، وقد أصابها بالتصلب ألم حاد ، ولكن هل هو إشارة الخلاص ؟ لقد وضعت مرة على هذا النحو ، وكان ذلك فى الخريف وقت جمع الذرة تحت مطر خفيف .

ويقلقها هذا الألم الذى يتكرر . وتأمل ألا يحدث الوضع الآن ، وعرق غزير بارد يثلج كليتيها ، فتفزع وتمسك بيدها اليسرى عجلة العربة ، وباليمنى تتعلق بالقش الذى اقتلعته من الأرض .

وظلت ساكنة وعيناها إلى السماء وأنفاسها متوقفة .

وفى أعلى ، أى فى أعماق زرقة السماء تتابع عصفوران وكأنهما نقطتان بالغتا الصغر ، وهما يغنيان ، وعلى الأرض وسط أعواد الذرة تغنى سمانة أيضاً . وخطر لأنا أنه كان من الواجب أن تتمدد على الحصير الموجود إلى جوارها ولكنها لم تجرؤ على أن تتحرك ، وبقيت ممدة فوق الأرض العادية .

ودنت من وجهها ضفدعة مبللة الظهر وهى تقفز ، ثم وقفت وحدقت فى أنا فاغرة فاها ، وعيناها جاحظتان ، وحلقها المبرقش بالبياض ينبض .

وتقـززت أنا وودت لو طردتهـا ، ولكن الآلام ترهقـهـا الآن ، ولا تسكت عنها ، فانطوت على نفسها وهى تئن ، واشتدت قبضة يدها على عجلة العربة ، وارتعلت ركبتاها فجأة وأحست كأن ساقيها تنزعان من الفخذين .

وتلا تلك الهزة إحساس بالانتعاش ، وغمرت النشوة قلبها وأشاعت البريق فى عينيها المليئتين بالدموع ، وتخلت عن عجلة العربة ومسحت التراب الذى كان لايزال عالقا براحة يدها اليسرى .

وعندما نهضت على ركبتيها كانت عيناها مضطربتين محاطتين بهالات سوداء . وبيديها المرتعدتين الهزيلتين انحنت لتأخذ الطفل الذى كان يرفس بساقيه فى القش .

وكانت شذرات من القش والتراب قد لصقت بلحم الطفل الأحمر ، فنهضت الأم ورفعت الطفل إلى السماء وهزته عدة مرات . فانطلقت منه صيحة . وفى لهفة أدنت أنا الطفل من ثديها وقبلت رأسه .

وانتزعت القش ومسحت التراب عن الطفل ، وخلعت مريلتها وطوتها وجعلت منها لفة للطفل ، ثم وضعته بسرعة فى العربة التى مدت فوقها الحصيرة لتظللها .

ثم أصلحت ملابسها واتجهت نحو زوجها لتواصل العمل إلى جواره وكأن شيئاً لم يحدث .

كان بيتر ماجون يسبح فى العرق وكأنه خارج من الاستحمام فى النهر . ومن خلفه عشرات من حزم القمح ملقاة على غير نظام

وقد أصبح الجو خانقا واتخذت الأرض لونا بنفسجيا ، وكأن حريقا قد شب فى سهل براجان .

واقتربت أنا من بيتر ، ولكنه ظل منهمكا فى عمله ، وظلت واقفة منتصبة ، والمنجل فى يدها تنتظر أن يتكلم ، وماجون يستمر في الحصد متحمسا بلا هوادة ، وبضربة قوية يقصف أعواد القمح المنحنية على شبا منجله .

وقالت له أنا : «بيتر أنصت إلى ... بيتر ... لقد وضعت» .

ودون أن ينهض أدار ماجون عينيه نحوها .

وتكلمت المرأة بصوت خافت وهى تحس بطعم الرماد بين شفتيها : «نعم يابيتر ... لقد وضعت » .

وسقط المنجل من يدى بيتر ونهض .

- وما حيلتنا فى ذلك ؟ لقد حدث لى ذلك مرة أخرى فى الخريف فى يوم ضباب .

وأراد بيتر أن يقول شيئا وأن يقسم بأغلظ الإيمان ، ولكنه استسلم بسرعة واسترد منجله . وبينما كان يحصد حزما جديدة من القمح سأل : «أهو غلام»؟

- نعم غلام .

فطالت عنقه أكثر من ذى قبل فهى أشبه بعنق النعامة .

وانشق فمه عن ضحكة عريضة صامتة ثم قال « ولماذا عدت إذن »؟

- لقد انتهى الأمر الآن ، وأحسن أنى خفيفة .

وها هى تحصد من جديد ، ولكن متخلفة بكثير عن بيتر الذى يسرع وكأن الذئاب تطارده ، والسنابل تحك ذقنة المبللة بالعرق ، وتعلق بها بعض أعواد القش .

وأخذت ريح خفيفة حارة تهب من ناحية الشرق وتحمل فى دوامات - المسك والأزهار البرية . ويختلس بيتر نظرة إلى أنا كلما وضع حزمة على الأرض . إنها بغير مريلة ، وجونلتها منحرفة عن وضعها ، وبصعوبة تستطيع أن تضم السنابل فى يدها ، ومنجلها يهتز ، وهى الآن توحى إليه بالحزن المثير ، فهى لم تكد تضع طفلهما الثامن ، ومع ذلك هاهى تعود إليه لتعمل !

وفجأة انتصبت أنا زائغة العينين والمنجل فى يدها وقال : «أحس بالألم من جديد يابيتر ، سأذهب » !

- إذهبى ولا تعودى ثانية إلى هنا . ابقى إلى جوار الطفل واحرسيه من أن يتسلق عليه النمل وهو نائم ، وغطه جيدا .

ومرة ثانية أصبح بيتر وحده - بينما اتجهت أنا ناصلة الشفتين بأسرع مايمكن نحو حافة الحقل حيث تقع العربة وبها الطفل - ولكنها لم تكد تصل حتى أخذت نفس الآلام - وبصورة أكثر عنفا - تمزق أحشاءها وأخذها الخوف ، وتمددت إلى جوار العجلة ، واقترب منها طفل حاملا زجاجة بين ذراعيه لكى يطلب إليها بلا ريب ماء . ولكنه لم يكد يراها بهذا الوضع حتى ولى جاريا وهو يتعثر .

ودخل ثور ليزاندرو لوكيا إلى أرض بيتر ونطح بقرنه رحى القمح . وقالت أنا : «ألا ليت بيتر يعود ليراه» .

وقلص الألم جسمها وتعلقت من جديد بعجلة العربة وأطلقت أنة . ثم شعرت براحة نهائية لاحد لها . وسمعت صرخة قصيرة فنهضت واقفة مبتسمة واستخلصت من بين القش الطفل الثانى . وفى جو يونيو المحترق أخذت وأوأة الطفلين تتردد فى الحقول ، وأنا تصغى إلى تنفس الطفل الثانى الذى لم ينتظم بعد .

وحومت فراشتان حولها فضمت فى خوف الطفل إلى صدرها وهى تلوح لتطردهما . ولف خبر وضع أنا زوجة بيتر ماجون لغلامين الحقل بسرعة ، فانبثقت تلقائيا قابلات عديدات فيما يشبه المعجزة ، وأخذن يغسلن الطفلين بالماء الممتوح من البئر وينتزعن خيط قطن أحمر من ملابسهن ليقمن بواجب ربط الحبل السرى .

وقطع بيتر عمله ليأتى إلى جوار زوجته ، وأدهشه التجمع الذى تكون حولها ، حتى أخذه قلق غامض ، فاستند إلى نير العربة وترك نظراته تطفو فوق الحقول وكأنه غريب عما يجرى حوله . وغير بعيد كانت خيوله المربوطة فى أوتاد تلف دوائر وهى تضرب بألسنتها القش المسحوق تحت حوافرها ، وتنفخ فى ضجة فتثير من حولها سحبا من التراب .

وقال أنتونى لا نجو وهو يتكىء بمرفقيه فوق العربة «إن الإنسان يستطيع أن يعد ضلوع خيلك يابترو فإذا لم ينزل المطر فسوف تموت جوعا» .

واقترب بيتر وهو يقول «إنها لم تعد حياة .عندى سبعة أطفال وبالإثنين الجديدين يصلون إلى تسعة . وبإضافة شخصينا يصبح المجموع أحد عشر فما تحتاج إلى الطعام ، ولنفترض أن الإثنين الصغيرين لايحتاجان بعد إلى كثير من الطعام . ولكن يبقى التسعة الآخرون ، وأنا لا أملك غير هذه القطعة الصغيرة من الأرض ولم أدفع بعد ضريبة العشر ولا بدل المرعى .

أسرع إلى الدفع وإلا جاؤوك يوما فأخذوا جميع حاجياتك ، وأنت تعلم ما حدث للآخرين ، الذين أخذوا منهم الأغطية نفسها .

– وماذا أفعل ؟ . . . من السهل أن تقول : أسرع .

– بع شيئا !

أنا أبيع ؟ . . وهل لدى شىء أبيعه ؟

وفجأة تغطت السماء بسحب رمادية ، آتية من المستنقعات ومن حواف سهل برجان . وكانوا قد رأوا مثلها من قبل أكثر سواداً ولكن أقل ارتفاعًا تهبط على الدانوب .

وفقدت الشمس بريقها بعد أن حجبت السحب جزءاً منها .

وظلت الحرارة خانقة ثقيلة على امتداد الحقول .

ومع ذلك أخذت تسرى فى هبات – تيارات من النسيم المنعش .

وزمجر الرعد وتدلت السحب إلى أسفل ، ولكن الأرض ظلت حارقة تحت صفحة الأقدام .

وقال أنطونى : سأذهب ! فلربما أمطرت .

وأصبحت أنا الآن وحدها فى العربة ، وطفلاها بين ذراعيها . وجلست على سرير من الحزم الذى أعدته الفلاحات لكى يخفف من اهتزاز العربة التى جلست فوقها على مستوى أعلى من الحاجز وفى هذا الوضع كانت تشبه العذراء المقدسة .

وأخذ الرعد يقصف بسرعة متزايدة ، وقطرات المطر الأولى تسقط كبيرة ثقيلة . وفك بيتر رباط الخيل وشدها إلى العربة بسرعة ووضع ملابسه فى العربة وألقى نظرة أخيرة ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً .

- أنت مستريحة عندك يا أنا ؟

- نعم ، لكن لا تسرع .

وأخذت الخيل تمشي وحدها ، واطمأن بيتر إلى أنها قد أحست قدوم العاصفة ، ولذلك أسرعت .

وكان المطر أكثر كثافة ناحية القرية ، فهو يهطل مثيرا التراب ، ويمتد فوق السهل بسرعة ، وكأنه ستارة من اللؤلؤ - والخيل تصهل ، وتنصب آذانها . وبيتر يبسط الحصير وكأنه خيمة فوق أنا وطفليها .

وبعد أن كان المطر غير ملموس وكأنه زفرات الريح لهبوطه رذاذاً ، أخذ يهطل فى بخات قوية قصيرة ، أشعثا هائجاً فوق برجان . واحتمى بيتر أيضا تحت الحصير ، ولكن ساقاه ظلتا عاريتين . وصنعت أنا لطفليها من جسمها واقياً آخر بأن انحنت فوقهما ، وهى تضمهما فوق ركبتيها وتحتضنهما بين ذراعيها . وعند كل هزة

من العربة تصيح : «هدىء يابيتر هدىء» . وترفع فى رفق الطفلين وتنظر رليهما فى قلق .

وأخذت الخيل تتقدم فى ركض عنيف ، والمطر يثير فوق الطريق رائحة الأرض المبللة .

وأخذ الماء يسيل فى الأخاديد التى تحفرها العجلات ليصب فى الحفر ، والأعشاب والحسك والأزهار وقد غسلت ونضرت نهضت على حافة الطريق ، بل والقش الذاوى نفسه رفع بعد جفاف أشواكه كالفرشاة .

ويخترق المطر الحصير فيبلل الشوفان والقش ، وتنطوى أنا فى نصفين فوق طفليها . ومنوقت إلى آخر تدنى شفتيها من أنفهما لتتأكد من أنهما لا يزالان حيين ، وتشعر بنسمات دافئة من الهواء تداعب شفتيها : إنهما يتنفسان !

وخرج بيتر من تحت الوقاء مفضلا أن يجابه المطر ، وألقى نظرة على أنا فرأى عينيها مبللتين بالدموع وقد ألصق المطر منديلها برأسها وتقلص وجهها وشحب .

وأحس ماجون هو أيضا بشىء رطب دافىء يبلل عينيه ، ولكنه لم يعرف هو نفسه ما إذا كان يبكى أو أن المطر قد أخذ ينزلق فوق وجهه .

وعلى جانبى الطريق كانت الحقول المنتعشة السوداء تلوح وكأنها تجرى تحت المطر الهادر المتريه . وكم لاحت له خيوله هزيلة تحت الطاقة الثقيل الذى يضربه جنوبها المبللة ، ومع ذلك أخذت تعدو

ومالجون يضرب كفليها بمقبض سوطه ، وكل ضربة تتبعها قفزة مفاجئة من العربة . وأخذه القلق فاستدار برأسة ناحية أنا لكى يتأكد أنها لاتشكو من شىء ، ولكن أنا لم تعد تتلفظ بشىء ، ولكن أنا لم تعد تتلفظ بشىء منذ وقت طويل .

وسقطت الصاعقة عن بعد ممزقة قبة السماء من ناحية الشرق .

وتحت سهام وابل المطر لاحت القرية ميتة ، وأزت عجلات العربة المبللة وهى تستدير فجأة لتعبر البوابة وتقف فى الفناء .

وقفز ماجون إلى الأرض ، وأمام المنزل خرج الأطفال ووقفوا صفا وهم يعلمون أن أمهم تحت الغطاء ، ولكنهم لايفهمون لماذا تأخرت فى النزول . وانطلق بيتر نحو أقصى الفناء ووصاح أيه . : . يا أب فاسيل . . . يا ابنة العم ماريا . . . احضرا بسرعة ! ساعدانى على إنزال أنا من العربة ، فقد وضعت فى الحقول » . وأسرع الجيران عراة الأقدام وهم يحمون رأسهم بقماش الجولات . واقتربت بنتا أنا الكبيرتان ، وبكتا دون أن تعلما ماذا حدث . وقفز بيتر من جديد داخل العربة - وسحب الطفلين الواحد بعد الآخر من تحت الحصير وأعطاهما لابنة العم ماريا التى احتضنتهما فوق صدرها ، وغطتهما بطرف شالها ، وأسرعت بهما إلى البيت ، وأنا بحكم بقائها طوال الوقت منحنية فوق طفليها قد تخشبت وكأنها قد انكسرت إلى نصفين .

ويستطيع الإنسان أن يسمعها إلى جوار الطفلين فى السرير القائم عندالنافذة .

والأطفال السبعة يبكون خائفين ولا يجرؤون على دخول المنزل . وقد بقى بعضهم فى الشرفة والبعض الآخر فى الردهة ، وهم فى قذارة ممزقو الثياب .

ويتركهم بيتر يجأرون دون أن يلقى إليهم بالا . ومن وقت إلى آخر تتراءى أمامه صورة ملحة ، صورة وجبة كل يوم لتسعة أفواه جائعة دائما ، ويجب مع ذلك إطعامها . وعما قريب ستصبح أحد عشر فما .

نعم كل المطر قد نزل ، ولكن قطعة أرضه الصغيرة لن تزداد خصبا ، وأما من يملكون مائة هتكار يفلحونها بواسطة خدامهم فالأمر مختلف .

وخرج تحت المطر وهو يلعن ، لكى يفك خيوله التى تركها تمرح فى الفناء .

وأخذت بطة ضالة تصيح فى يأس وبيتر يحس بوخز فى ساقه المجروحة .

ووصل جاراه ڤاسيل وماريا إلى عتبة البيت مغطين رأسيهما بالقماش .

- لا تقلق يا ماجون . . . إنهما غلامان . مبروك .

وأراد بيتر أن يرد وأن يشكرهما ولكنهما لم يعطياه الوقت فقد وصلا إلى الشارع . وهدأ المطر فلم تعد تسقط غير قطرات نادرة من الماء . وأوراق الطلح تهتز فتقلق راحة العصافير فى أوكارها .

واصطف أطفال ماجون من جديد أمام الباب . ووضعت أنا رأسها فى النافذة وهى صفراء كالشمع ، وظل بيتر وحده فى الفناء

وقدماه الكبيرتان العاريتان مغروستان في طين أمطار يونيو ، وليست لديه أية رغبة في الدخول . وصهل أحد خيوله ، وأحس بأن صيحة الحيوان الجائع تتخذ شكلا وإطارا لتبقى معلقة على طلح الطريق تحت بصر أطفاله .

وخرج ماجون من الفناء ليذهب إلى بيت أنطوانى لونجو ، متشوقا إلى أن يعرف عند من ذهب صيارفة الخزانة فى ذلك اليوم ، وهل وقعوا الحجز على حاجيات أحد .

ولم يقل شيئا لأنا ولا لأطفاله . وعبرت أصوات الصهيل السور من جديد قادمة من الفناء وتقدم بيتر مبهوتا إلى وسط الطريق ، وأصوات الصهيل تتبعه ، ويراها معلقة على أشجار الطلح ، وهى تلح عليه ، ولكنه يحاول أن يفهم قائلا : «هل حدث أن رأى إنسان صيحات معلقة بأغصان الأشجار ؟» .

وهبط المساء فى هدوء بخطى ناعمة ، وصفت السماء ، والشمس الغاربة ترسم أزهارا بنفسجية فوق زجاج نوافذ المنازل الريفية .

زهاريا ستانكو

(١٩٠٢-)

زهاريا ستانكو الصحفى المكافح والشاعر الموهوب (قصائد بسيطه) - فيما بين الحربين اكتسب شهرة دولية ، بفضل روايته «حفاة الأقدام» سنة ١٩٤٨ التى ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة ، ولغت العالم . وستانكو بارع فى بعث التاريخ الذى عاشه طفلا وشابا ، واتخذ منه مادة لهذه القصة فهى اعترافات حياته الخاصة ، وفى نفس الوقت لوحة اجتماعية وسياسية للحياة الريفية والحضرية منذ أربعين عاما . ووقائع القصة ترتبط عنده بلغة تصويرية تعطى صفحاته طابع الشعر المنثور .

ولنذكر له أيضا قصته الكبيرة «أزهار الأرض» وروايته «الكلاب» التى خصصها لكفاح الفلاحين سنة ١٩٠٧ . وحديثا أعطانا عضو الأكاديميا زهاريا ستانكو الحلقة الملحمية «الجذور مرة» التى ترسم لوحة ضافية للمجتمع الرومانى البرجوازى والكفاح الشيوعى قبيل الحرب العالمية الثانية .

زهرة الليلا

«الراوية رجل من سكان المدن أبيض الشعر مجعد الوجه يأتى بعد سنوات طويلة من الغيبة ليحضر اعياد رأسى السنة فى القرية مسقط رأسه حيث كان كل شىء قد تغير منذ وقت طويل فلا يلتقى بأحد ولا يعرفه أحد .

« ومنع ذلك يلتقى عند البئر ذى الدلو بامرأة ذابلة عجفاء مشغولة بملء جرادلها . منها فيلمونا التى أحبها عندما كانت أشجار الليلا مزهرة . وكانت تغطى رأسها بمنديل من الموسلين وبعد أن تبادل معها بضع كلمات ذهب إلى أخته حيث أخذ تغطى رأسها بمنديل من الموسلين وبعد أن تبادل معها بضع كلمات ذهب إلى أخته حيث أخذ يصك الأقداح مع أفراد الأسرة المجتمعين لهذه المناسبة .

وفى المساء يخرج مع كوكولتز أحد أبناء أخته ويتسلق التل ليرى الأطفال وهم يجوبون القرية وفقا للتقاليد حاملين نجوما كبيرة من الورق ومرددين أغانى عيد الميلاد» .

***

استندت علي عصاى وتسلقت لاهثا مزلقان السكة الحديدية ، ثم سفح التل . واستندت على عصاى أيضا مبهور النفس لأنزل على السفح الآخر .

وقال لى كوكلتز : إنك مثقل الخطى كثور أضناه النير .

- إنك على حق فأنا مبهور النفس لكثرة ماقاسيت فى حياتى تحت أنواع مختلفة من النير .

- أما أنا فخفيف كالعصفور ، ومهما عدوت لا أحس بالتعب .

- وأنا أيضا لم زكن أحس بالتعب عندما كنت فى سنك

- وهل كان ذلك منذ وقت طويل ؟

- نعم . . إلى حد ما

- وعندما أصل إلى الشيخوخة مثلك هل ستكون لا زلت موجوداً فى العالم ؟

- لا ياكوكليتز . لن أكون فى هذا العالم .

وتنهد الغلام ، وبعد لحظة تمتم قائلا : «أنا آسف» !

- علام تأسف ؟

- لست أدرى ولا أستطيع أن أفسر لك ، ولكننى أحس بالندم .

- أما أنا فلا ، ولست نادما على شىء . وأعتقد أننى قد عشت مافيه الكفاية .

وأمام باب العربات ودعنى أنا وأختى جميع أقاربى وهم يتمنون لنا ليلة سعيدة .

- سنراه غدا ؟

وأجابتهم أختى : «ليس غدا ، فأنتم ترون أنه متعب . وغدا يجب أن نتركه يستريح» .

- فليكن

وذهب كل إلى سبيله وتركني كوكلتز أيضا ، وهو يسير بخطى ثابتة ، وقلنسوة الفراء منزلقة على قفاه ، وتحت ذراعه هراوة ، فى مشية متكبرة كأنه سيد العالم . ولربما كان !

وفوق القرية وفى أعماق السماء لمعت النجوم .

وقالت لى أختى : «كل لقمة ونم فالرحلة قد أتعبتك» .

- الرحلة؟ . . الرحلة فقط ؟ . .

وفوق الشرفة بالقرب من الباب رأينا امرأة مستندة إلى الحائط ساكنة حتى ليحسبها الإنسان متحجزة ، وهى تنتظرنا .

فسألت أختى : «أنت فيليمونا» ؟

- نعم أنا . . . أتيت لأجل . . .

- من الأفضل أن تمرى غدا أو على الأصح بعد غد ، لا غدا ، فأخى . . .

وقلت لأختى أتركيها مادامت قد جاءت . . أتركيها تدخل ، فالنوم سيهرب منى على أيه حال حتى الصباح ، وهو يفعل ذلك منذ سنوات .

وقالت فيليمونا : «لابد أنهم قد سحروا لك حتى لاتجد راحة» .

- هذا ممكن

- على أية حال لست أنا - أؤكد لك - التى سحرت لك !

ووضعت عصاى فى ركن وخلعت غطاء رأسى ومعطفى ،

وجلست على حافة السرير ، والحجرة دافئة مضاءة . وجلست فيليمونا فوق مقعد ، وهى تلبس فى قدميها حذاء حربيا باليا ، وترتدى ثوبا أسود ، وتغطى رأسها وكتفيها بشال أسود أيضا . وأخذت أختى تنظر إليها شزرا ، ولولا خوفها من أن تغضبنى لطلبت إليها أن تذهب . وقال لى فيليمونا :

«لو أنه كان فيما مضى فى البيت نور لاستطعت أن تقرأ طوال الليل ، كما كنت تفعل فى الليالى المقمرة» .

– هذا حق لقد كنت أقرأ فى ضوء القمر ، وكانت عيناى قويتين عندئذ .

– والآن لم تعودا قويتين ؟

– والآن لم تعودا قويتين ؟

– لا لم تعدلى عيناى قويتان . وأضطر أحيانًا إلى استخدام النظارة .

ومر قطار فهز البيت هزاً عنيفاً . وارتجفت ألواح الزجاج بعض الوقت . وقالت أختى . «سأذهب لإعداد الطعام . وسيعود زوجى من العمل بين لحظة وأخرى » .

وبقيت وحدى مع فيليمونا ، وبصرى يجذبه الحذاء الذى تلبسه .

– أنت تنظر إلى حذائى ؟ إننى ألبسه أثناء الشتاء . وقد كان حذاء ابنى الأصغر ، ابنى فلوريكيل . ولست أنا التى دفنت

الولدين الآخرين ، فأحدهما مات فى مكان ما بروسيا ، وسقط الآخر فى المجر . وأما فلوريكل فقد حملوا إلى جذعه فقط ، أو على الأصح لم يحملوه ، بل طلبوا منى الذهاب إلى تورنو حيث توجد المستشفى ، وهناك رأيته وأخذته . وقد ذهبت لإحضاره فى عربتنا التى تجرها الثيران وملأت العربة بالشوفان وسرت فى الطريق . وعندد المستشفى حللت الثيران من العربة ودخلت . وكان هناك فناء كبير فى المستشفى ، وفى ذلك الفناء مقاعد تحت أشجار الطلح . وعلى هذه المقاعد جنود فى النقاهة خرجوا إلى الشمس كالحشرات .

- عمن تبحثين أيتها الأم الصغيرة ؟

- عن ابنى الأصغر العسكرى .

- ما اسمه أيتها الأم ؟

- فوريكل لازو .

- آه . . لازو ؟ . . . اذهبى إلى الصالة الكبيرة

- وأى طريق أسلك إليها ؟

- انظرى أيتها الأم الصغيرة ، سأصحبك إليها .

«وعندئذ ترك هذا الجندى مقعده واصطحبنى متعثرا إلى الصالة الكبرى » .

- ادخلى هنا وستجدينه بسرعة

لقد وجدته شاحبًا كالشمع ، ممدا على الفراش :

- هل أنت فى حالة طيبة يابنى ؟

- طيبة ياماما

كان هناك تحت غطاء . وهاهو طبيب صغير يصل .

- أنت أم لازو ؟

- نعم أنا أمه .

- تستطيعين أخذه إلى المنزل ... هل لديك عربة صغيرة أم كبيرة ؟

- كبيرة

- حسن جداً ! ... إذهبى إذن وشدى الثيران إلى العربة وانتظرى إلى جوارها ، فسوف نحمله إليك حالا .

وضعت الثيران تحت النير ، ووصل ممرض بعد قليل حاملا فلوريكل على ظهره ، ومن خلفه رجل آخر يحمل لفافة بها ملابسه . وسأل غلامى : «لقد وضعت أيضاً حذائى فى اللفة يا أوبريا؟»

- لقد وضعته! وكان من الممكن أن تتركه لى فلن تحتاج بعد ذلك إلى حذاء !

- أريد أن اتركه لأمى فستلبسه بدلا من أن تسير حافية القدمين فى الطين .

وحملت الحذاء إلى بيتنا . وفى المستشفى كانوا قد أعطوه قبقابا من الخشب كان يضغط بيديه عليه ويزحف أو يقفز كالجرادة . وكنت سعيدة لأن أجده إلى جوارى ، ولو أنه مبتور

الساقين . ياإلهى ! ياللإنسان مع ذلك ! لقد كان كسيحا ، ولكن الشباب هو الشباب . وهاهو يصاحب أرملة نييلو زوجة ابنى .

- إنها خطيئة يافلوريكيل . إنها زوجة أخيك ولها منه أطفال ثلاثة .

- ليست هناك خطيئة مادام أخى قد مات و ولم يعد فى الأمر مايزعجه .

- إن فى هذا ما سوف يضحك القرية كلها ياصغيرى فلوريكيل .

يضحكها ؟ الأجدر بالقرية أن تبكى !

- وماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ لقد تحملت العار مغلوبة على أمرى . وبعد ذلك أخذ يعتاد الذهاب إلى الحانة ويستولى على جميع النقود التى يجدها فى المنزل ويتسكع فى الحانة ويشرب الكثير ، وعندئذ يأخذ فى التشاجر مع الناس بل ومع رجال البوليس أنفسهم ويقول لهم : « أيها الكتاكيت ! إنكم شبان فلماذا لا تذهبون إلى الجبهة لتحطموا أنتم أيضًا بمدافع الروس ؟» .

وذات مساء لم يعد إلى المنزل . وانتظرته وبحثت عنه فى كل مكان وقبيل الصبح وجدته وسط الأدغال على حافة الماء ، ورأسه محطمة بضربة قالب من الطوب ، وزوجة ابنى أرملة نييلو تركت القرية . وقد قيل لى إنهاعملت خادمة فى بيت كبير ببوخارست وتركت أطفالها على كاهلى . وكان لابد لى من أن أعنى بهم . ولم يكن الأمر سهلا . وأثناء ذلك عاد سامينتزا أخو زوجى . وهو

رجل أسمر أزرق العينين قصير الشارب ضخم اليدين والأصابع .

وقلت له : «أهلا وسهلا ياأخي!»

- أنا سعيد بأن أجدكم جميعاً في صحج طيبة .

وعندئذ سمعت أختي وهي تسألني : «أو ما تحضر لتناول الطعام؟»

- لست جوعانا ، وأنا لازلت أتحدث قليلا مع فيليمونا .

- تتحدث مع فيلمونا وتدخن ... وطبعاً لا يمكن أن تحس بالجوع .

- حقا أنا أدجن ، ولم استطع التخلص من هذه العادة .

وأنظر إلى فيليمونا ، وفيليمونا تنظر إلى ، وقد أصبحت يداها خشنتين وغطتهما التجاعيد ، وجبهتها أيضاً مجعدة وخداها غائرين وشفتاها وإن ظلتا ممتلئتين إلا أن الريح قد أضفت عليها صبغة بنفسجية .

وقالت : «الجو دافيء جداً» .

وخلعت الشال الذي يغطي رأسها ووضعته إلى جوارها على ظهر مقعد ، ولم تحتفظ إلا بمنديلها الأسود .

وأجبت : «هذا حق ! الجو حار»

- وقد ملأت الحجرة بالدخان ...

- هل تذكر أنك أتيت إلى المنزل لمدة أسبوع بعد الحرب ؟

- نعم أذكر

وقالت فيليمونا «كان ذلك فى الربيع» .

– فى الربيع فعلا !

– وكانت أشجار الليلا قد أزهرت

– نعم يخيل إلى أن الليلا كانت مزهرة يافيلى !

– وبعد رحيلك لم تكتب لى قط .

– لم أكتب لك . . . هذا حق . . . لم أكتب لك قط

– ولا بضع كلمات .

– ولا بضع كلمات يافيلى . . .

– وسقطت مريضة . . . آه . . . لا . . . لا تظن . . .
ذلك حدث لأنك لم تكتب ، وقد فهمت جيداً أنك
المدينة المحمومة لم تجد وقتا لتكتب لى .

– هذا حق . . لم أجد وقتاً يافيلى . . .

– ولم أدر أنا نفسى ماذا حدث لى ، فقد كنت كأننى
آخر . وظننت أنى سأجن . هل تتذكر بوندار ؟

– أى بوندار ؟

–بوندار صول البوليس .

– الأسمر الطويل ؟

– نعم هو . كان قد انتهى لتوه من الخدمة العسكر
يستعد للعودة إلى بيته فى قرية من ضواحى بيتستى . وق
بالزواج وطلب أن أرحل معه ، وعندئذ رحلت معه . كنت

أحب البقاء هنا ، قد سئمت حقولنا ، وسئمت التل ، بل وسئمت منزلنا أيضًا . وحزمت أمتعتى ووضعتها كلها فى جوارى . وذات مساء رحلت معه فى القطار . وبعد منتصف الليل بقليل وصلنا إلى بيتستى .

وهنا قال لى «هيا لننزل وسنقضى بقية الليل فى فندق .»

– ولكنك ستحترمنى ؟

– بكل تأكيد . وغدا سنصل إلى منزلى . وهناك سنتزوج .

وقادنى إلى الفندق فى مكان ما إلى جوار المحطة . وكان كوخا تفوح منه رائحة البؤس . ويالهول ما رأيت فيه ! وما قاسيته فى تلك الليلة . . ياإلهى . . . ياليتنى مت !

– لسوء الحظ يافيلى إن الإنسان لايموت عندما يرغب ، وإنما يموت كل منا حين يحين حينه .

– هناك من يموتون عندما يريدون ، فيضعون نهاية لأيامهم . . . وليس هذا صعبًا . أو ماترى ذلك؟! . . . حبل فى العنق وانتهى الأمر ! ولقد فكرت فى ذلك أيضًا ، ولكننى خفت . ثم إنه أمر غير مناسب أن يجدك الأغراب معلقا فى مسمار ولسانك مدلى !

وأجبتها . : نعم . أنت على حق يافيلى . إنه أمر غير مناسب .

– الموت يجىء دائمًا في النهاية .

– نعم يافيلى يجىء إلينا جميعًا .

وكانت ترن فى دقة كلا من عباراتى . والحزن ينضح على وجهها ، وسمعتها تتمتم : «قل لى لماذا أنت منهار هكذا؟ . . كنت قد ظننت أنك قد أصبحت الآن شخصية كبيرة . فما الذى ينقصك ؟» .

وأشعلت سيجارة جديدة رغم كل ما كنت قد أشعلته حتى الآن وأخذت أمتص فى عمق الدخان الدافىء المر وضحكت . . ضحكت بكل قوتى . ونهضت أجوب الحجرة ويداى خلف ظهرى . وإذا بأختى تدخل حاملة صينية .

- أنا سعيدة لأن أسمعك تضحك . والله وحده يعلم ماذا يمكن أن تكون هذه المجنونة فيليمونا قد قصته عليك من خزعبلات!

وأخذت فيليمونا تضحك بدورها وتقول : «لقد أعدت على سمعه النكات التى يحكونها عندنا من فم إلى أذن » .

وقالت أختى «إننى أدرك ماذا يمكن أن تكون » .

ثم تضيف قائلة : «هاهو شىء تأكله وزجاجة نبيذ لكى تعطى شيئًا من النشاط . وإذا لم تكن ذاكرتى قد خانتنى فإنكما كنتما حبيبين فى الماضى » .

وقالت فيليمونا : «أبدا هذه أقاويل» .

وذهبت أختى ، فزوجها الحداد ينتظرها فى الغرفة الأخرى . وأكلنا قليلا من اللحم المشوى ومن الخبز المنزلى الجيد . كما شربنا قليلا من النبيذ . ومسحت فيليمونا فمها بظهر يدها وهى تقول . هل تعلم أن هذه هى أول مرة نتناول فيها الطعام معا ؟»

- لم أكن قد فكرت فى ذلك . ولكن نعم ، أنت على حق يافيلى .»

وملأت كأس فيليمونا كما ملأت كأسى أيضًا وقلت «فى صحتك يافيلى .»

- فى صحتك !

ولاحظت أننى قد أفرغت كأسى حتى قاعها ورأيتنى أقول : «كأس آخر يافيلى؟» .

واهتزت جدران الغرفة لحظة ، وإيقونة القديس بطرس تنظر بعينيها الجاحظتين ، والعذراء ماريا تنظر إلى أيضًا بعينيها الواسعتين هى والطفل الذى تمسكه بين ذراعيها .

- سألتنى يافيلى عما إذا كان ينقصنى شىء . ألا فاعلمى أنه لا ينقصنى شىء ، ولست فى حاجة إلى شىء ، وأنا سعيد ... سعيد ...

وهدأت فيليمونا من نبرتى بقولها : «لايلوح عليك ذلك ولا يمكن أن يحس الإنسان منك ذلك » .

فأجبتها : «ربما لا يحسه أحد ، ولكن صدقينى فأنا سعيد ... سعيد» .

- وهناك فى الفندق طلب بوندار مشهيات ونبيذا . وتناولت الخبز معه ، وشربت أنا أيضًا ، وأنت تعرف كم كنت ساذجة فى ذلك الوقت .

- نعم أعرف يافيلى .

- وعندما سكر أساء إلى . وفى صباح اليوم الثانى استيقظت لأجد نفسى وحيدة إذ كان قد رحل . وحملت متاعى وذهبت إلى البواب لأسأله : أو ما رأيت زوجى الذى أتيت معه فى الليل؟

- نعم رأيته ياصغيرتى ، فلقد دفع ثم سافر على بركة الله .

- والآن ما مصيرى أنا؟

- من أين أنت ياصغيرتى ؟

- أنا من . . . وأخذت أبكى .

وقال لى البواب «لاتبكى فلا فائدة من الدموع» .

- وماذا أفعل الآن ؟ وما مصيرى ؟

- لست أولى من حدث لهن ذلك . وستفعلين مافعلته الأخريات ويجب أن أتحدث عنك مع صاحب الفندق ، مع السيد فوتاكى . وها هو قادم .

رجل أصلع ذو كرش ، رأيته وهو ينزل على الدرج ، وشارب كثيف يغطى فمه .

- من هذه الصغيرة ؟

- ليست شيئًا ممتازًا ياسيد فوتاكى . واحدة من الأوباش أحضرتها الليلة ونسيتها هنا . وظننت أنه من الممكن أن نحتفظ بها عندنا .

ووزنتى السيد فوتاكى بنظرته ومط بوزه وقال : نعم نعم إنها ملفوفة ، نضرة ومهندمة قليلا ويمكن أن تعجب» .

وعدت إلى البكاء . ووجه فوتاكى إلى البواب أمره قائلا : «استدع المساعدة»

كانت مدام كلارا امرأة ضامرة ذات أنف طويل حاد .

وسألها السيد فوتاكى : «هل تستحق هذه أن نحتفظ بها»؟

- رائعة ياسيد فوتاكى . ولكن فى رأيى أنها تحتاج إلى بعض الوقت لتكوينها . وأنا أظن أنها لاتعرف شيئًا كثيراً . وأنت تعرف أن الزبائن يدققون . . . والسيد جورجيل والسيد كوستاكى ، فضلا عن الحافر القديم حكمدار البوليس . . .

وقلت : «باستطاعتى أن أغسل السلالم وأنظف الحجرات ، وأكنس الفناء » .

فرد السيد فوتاكى : «ليس هنا فناء» .

- آه يا إلهى ! لماذا أقص عليك كل هذا ؟

الجدران لم تعد تهتز من حولنا ولا القديس بطرس تحملق عيناه نحونا ، ولا العذراء مريم أو طفلها الرابى الذى تحمله بين ذراعيها .

- وبعد ذلك بشهر استطعت أن أهرب وتناولت شجاعتى بين يدى وعدت إلى المنزل .

وقالت لى أمى : « أنت عاهرة ، وقد أطلقت ألسنة الناس فينا . ثم من الذى سيتزوجك الآن» ؟

- رجل مسيحى

وكان هناك هذا الرجل . فبعد بضعة أسابيع طلب يدى أونو لازو أبله القرية ، وتزوجته .

وعندما قادنى إلى بيته قال لى «أنت لست عذراء» .

– لا لم أعد عذراء .

– لماذا لم تعودى عذراء ؟

– أنت تعرف جيدًا حكاية بوندار .

– بوندار وحده ؟

ولم أرد عليه بشىء ، فانهال على ضربًا بلكماته ، وسحق عظامى . وقضيت خمس سنوات معه . نعم خمس سنوات . وخلال هذه السنوات الخمس استسلمت له ثلاث مرات ، ووضعت ثلاثة غلمان . وقد اختار الله إلى جواره أونو لازو . وبعد ذلك . . .

وصمتت ونظرت إلى من جديد بعينيها السوداوين الكبيرتين الجافتين الغائرتين فى محجريهما . وأخذت قطعة من الشواء قضمتها كما قضمت قطعة من الخبز ، وقالت «إنه جيد هذا الشواء ، والخبز كذلك جيد ، وأختك تجيد صنعه » .

وأجبت : «نعم جيد ، ولابد أن القمح قد أجيد طحنه والفرن أجيد قدحه » .

وقالت فيليمونا : «نعم لكى يجود مذاق الخبز يجب أن يعد له كل شيد بعناية . ولكن أنت قل لى . ماذا فعلت طوال هذا الوقت ؟»

– لقد تصرفت . . . تصرفت بمهارة . أولا تعلمين ذلك ؟

– نعم أعلم . . . أعلم ، فكل شىء يعرف فى النهاية .

- ولكنك لم تنظرى إلى .

- نعم نظرت ولا أفعل شيئا غير ذلك ، وأرى أنك تتوكأ على عصا .

- نعم أتوكأ أحيانًا عندما أكون متعبًا .

وبخطى خفيفة عادت أختى مرة أخرى .

- لقد حملت لكما زجاجة أخرى من النبيذ وأنا أرى أنكما تريدان مواصلة الحديث بينكما .

فقلت : «نعم لا يزال لدينا ما نقوله»

- إذن أترككما ، فسامنتزا يريد أن تنام .

- مساء الخير .

وأخذنا نشرب كأسًا بعد آخر وفيليمونا تقول «فى صحتك ! . . فى صحتك! . . .»

ونهضت لكى أضرب كأسى بكأسها ، قائلا «فى صحتك يافيلى وحظًا سعيدًا » .

- آه حظى ! هل تعلم أنى لا أتمنى مثله حتى بالنسبة لأعدائى!

ومر قطار آخر بالمنزل فاهتزت النوافذ مرة أخرى .

- منتصف الليل يافيلى

وردت فيليمونا : «منتصف الليل»!

ونظرت إلى الساعة .

- أتذكر أننا مكثنا مرة أخرى نتحدث حتى منتصف الليل نحن الإثنان . . . حدث ذلك مرة واحدة !

هذا حق يافيلى . . . مرة واحدة !

– أنا ذاهبة ، وربما تريد أن تنام .

– سأصحبك يافيلى

– لماذا . . . أنا أعـــرف الطريق . ومع ذلك إذا أردت . . .
وأخذت شالها وغطت رأسها وحبكته على أكتافها .

وأخذت أقفز إلى جوار فيليمونا متوكأ على عصاى عبر حارات القرية ، والسماء داكنة وبعيدة دائما ، والنجوم جميعا لا تزال تلمع وحدست فيليمونا مايدور بخاطرى .

– حقا إن السماء فوق رؤوسنا تشبه ما كانت عليه ، وكذلك النجوم . هل تسمعنى . وتحت أقدامنا لا تزال نفس الأرض .

السماء لا تشيخ يافيلى .

– والأرض لا تشيخ أيضًا .

ومررنا إلى جوار عمارة كبيرة حديثة البناء وضوء القمر يسقط على زجاج النوافذ ويضيئها فأسأل : لمن هذه العمارة يافيلى فلست أعرفها ؟

– إنها ليست عمارة بل مدرسة ، ولا تستطيع أن تعرفها لأنها لم تبن إلا فى العام الماضى .

ووصلنا إلى أرض كبيرة مكشوفة وفى وسطها بيت مدبب السقف أعرفه .

– إن تراكالى يسكن هنا

- تراكالى ! أو لم تتسه ؟

- لا !

- إن المنزل يسكنه الآن رجل يدعى لانجودى ستانيكوتز وقد تزوج بنت ترا كالى الصغرى .

وترا كالى ؟

- ترا كالى ؟ . . إنه هناك تحت التل إلى جوار الكنيسة القديمة .

وأيقظ مرورنا كلبا فقفز على السياج ونبح ودار حولنا مهددا . ودافعت عن نفسى بالعصا .

وقالت فيليمونا : «هل لك أن تذهب يا متوحش»

وعرف المتوحش صوتها فهدأ وعاد لينام .

وقالت لى : «ها نحن قد وصلنا»

- وصلنا إلى الباب ؟

- نعم نفس الباب !

وظهر القمر وارتفع إلى كبد السماد وهب الهواء رماديا أزرق فى لون الدخان ، ورأسى تحترق وأضغط على صدغى بقبضتى بكل ما أستطيع من قوة وأقول : «يلوح لى يافيلى أن شجرة الليلا قد أزهرت» .

وأجابتنى نعم «أزهرت . . . نعم أزهرت منذ مساء أمس !

أزهرت ولكنك لم تدرك ذلك إلا الآن !»

– الآن فقط يافيلى ؟

وأخذتها بين ذراعى والتصق جسمها بجسمى ورفعت وجهها ، وفى نهم عميق عضضت شفتيها المليئتين الجافتين المرتين .

واهتزت السماء واهتزت النجوم واهتز المقر والأرض أيضًا .

وانتزعت فيليمونا نفسها من أحضانى وأنا أسمع صوتها وهى تقول لى متمتمة : يالك من غبى ! وماذا يجدى هذا الآن؟»

– لاشىء يافيلى ! هذا لايجدى شيئا !

وانفتح الباب وأغلق .

وأخذت أتسكع عبر طرقات القرية والكلاب لا تعرفنى ، فبعضها ينبح لمرورى والبعض الآخر ينقض ليعضنى .

وعندئذ أقف لأدافع عن نفسى بضربات العصا .

كتب للمؤلف

١ – نماذج بشرية

٢ – النقد المنهجي عند العرب

٣– الأدب ومذاهبه

٤ – في الأدب والنقد

٥ – مسرحيات شوقي

٦ – مسرحيات عزيز أباظة

٧ –خليل مطران

٨ – إبراهيم المازني

٩ – الشعر المصري بعد شوقي (١)

١٠– الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثانية جماعة أبوللو

١١ – الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة

١٢ – ولي الدين يكن

١٣– إسماعيل صبري

١٤– فن الشعر

١٥ – المسرح

١٦ – المسرح النثري

١٧ – مسرح توفيق الحكيم

١٨ – قضايا جديدة في أدبنا الحديث

١٩– الثقافة وأجهزتها

٢٠ – النقد والنقاد العرب المعاصرون

٢١- الكلاسيكية والأصول التقليدية للدراما

٢٢ - دفاع عن الأدب لجورج ديهامل (ترجمة)

٢٣- من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث للأساتذة بوجليه وبرييه ودى لاكروا وبارودى (ترجمة)

٢٤ - فى الميزان الجديد

٢٥ ـ معارك أدبية

٢٦ ـ الأدب وفنونه

٢٧ ـ قصص رومانية

٢٨ ـ المسرح العالمى

الفهرس

الموضوع	الصفحة



طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

الدكتور محمد مندور

علم من اعلام البيان ، وعلامة ادبية راقية .. مضيئة لكل ادباء
ورحلته في دنيا الأدب جعلته في علياء القمم يسمو إليه عاشق
الوصول . فبريشة الفنان رسم لوحات ادبية وهمسات نا
فياضة .

فهو الناقد البصير والمحلل الموضوعي والمؤرخ المحايد ..
لمسة ادبية وإحساس مرهف .

وتفخر دار نهضة مصر أن تهدى لقرائها الكرام موسوعته ا
إسهاما منها للمكتبة الأدبية ولدنيا الفنون الجميلة في العال

مؤلفات الدكتور/ **محمد مندور**

- النقد والنقاد المعاصرون .
- النقد المنهجي عند العرب .
- في الأدب والنقد .
- في الميزان الجديد
- معارك ادبية .
- الأدب وفنونه .
- الأدب ومذاهبه .
- نماذج بشرية
- الكلاسيكية والأصول الفنية للدراما
- الشعر المصري بعد ش
  - الحلقة الأولى : بين النقد
  - الحلقة الثانية : جماعة
  - الحلقة الثالثة : رواد ا
- مسرحيات رومانتيكية .
- مسرح توفيق الحكيم
- مسرحيات شوقي .
- المسرح النثري
- المسرح العالمي .
- المسرح .
- في المسرح المصري

